اقرأ

طه عبد الباقي سرور

الغزالي

دار المعارف للطباعة والنشر

طه عبد الباقي سرور

الغزالي

اقرأ
٣١

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

اقرأ ٣١ — يونيو سنة ١٩٤٥

عصر الغزالى

كان القبس الالهى الذى أضاء الجزيرة العربية فى منتصف القرن السادس للميلاد أكبر بعث فكرى عرفه التاريخ .

فقد أضيف به إلى التراث الإنسانى مادة سماوية امتزجت بالقلوب والعقول والأرواح امتزاجاً أنساها الدنيا هنيهة ، فأقبلت على هذا القبس تستلهمه وتسترشده وتبصر الدنيا على هداه .

وهيمن هذا القبس هيمنة تامة على مقومات الحياة فى المجتمع الجديد . فمن هـذا القبس كان التفكير ، وكانت طرائق البحث والجدل .

واندفع هذا الشعاع الإلهى يقيم حضارة روحية معطرة القلب والفكر والعمل بعطر دينى خالص غالب على سواه من أنفاس الحياة و بواعثها .

وحمل بدو الجزيرة هذا القبس إلى العالم يزاحمون برايته مناكب أمم أشد قوة و بأساً وأعرق حضارة وغرساً .

ثم هدأت فورة البدو وانتشر الشعاع مشرقاً ومغرباً ودانت بالنور أمم وشعوب تهافتت على المورد العذب تنهل وتتعلم ثم تحمل الراية .

ثم قامت الدولة العباسية فى المشرق فكانت عجباً ؟ كانت انقلاباً كاملا للمجتمع الجديد فهى دولة عربية اللسان فارسية اللون عالمية التفكير . كانت انقلاباً جديداً ووجهاً جديداً للحضارة الإسلامية والتفكير الإسلامى ، فإن كان عصر الأمويين عصر قرآن وتسليم وإيمان فقد كان عصراً عربياً خالصاً .

أما هذا المجتمع العباسى فهو مزاج عجيب من أمم شتى تجمعها عقيدة واحدة ، وتفرقها ألوان من التفكير . وألوان من التاريخ . وألوان من الحضارات ، وألوان من الوراثات .

وابتدأ هذا المجتمع الجديد يجذب إليه العقول من أطراف المشرق تهرع إليه لتهتدى بهدى قرآنه . أو لتلتمس العيش فى آفاقه ورحابه .

فلم يكن بدعاً أن يتفجر من هذا المجتمع أعجب مزاج فكرى فى تاريخ الفكر والإنسان ؟

ابتدأت أقلام العلماء من أبناء فارس والروم واليهود تنقل

كنوز الفرس والأغريق والهنود فى سرعة وحماس يزكيهما إقبال الجماهير وتأييد الولاة ، كما ظهر على أطراف الحياة الإسلامية فلاسفة إسلاميون تتلمذوا على اليونان والأغريق وأضافوا إلى تراثهما المعارف الإسلامية الجديدة .

وامتد تأثير هذا البعث السريع المتلاحق إلى الحياة الفكرية عامة فترك طابعه على الآداب . العربية ، كما تأثر به رجال الفقه والرواد الكلاميون . فإن المعتزلة وهم طلائع الكشف الفكرى فى الإسلام يدينون لفلسفة اليونان بأكثر ألوان الجمال المشعة فى منطقهم وحججهم .

ثم تلا عصر الترجمة عصر تلاطمت فيه المعارف الجديدة ، فنشأ عنها وجوه مبتدعة من التفكير والبحث والتأمل . وتميز العصر الجديد بسماحة كاملة وحريات تامة ، عصر انتفت منه العصبية الفكرية الحساسة الغيور وسادته إباحة مشرقة تشعر بحاجتها إلى الاستزادة من المعارف وتحس ظمأ ملحاً إلى تلك الآفاق المجهولة التى تتفتح أمامها من مشارق الأرض ومغاربها .

فما انتصف القرن الخامس الهجرى ، أو ما يسمونه بالعصر

العباسى الثالث حتى كانت الدولة العباسية أمة مترفة الفكر ، مترفة المزاج . مترفة البحث الحر .

كان للعصر العباسى الثالث طابع الإسراف فى التفكير وجموح الخيال ، بل لقد انقلبت وجوه الإسراف إلى بلبلة عجيبة وعرض عجيب للملل والنحل والمذاهب .

مجتمع عجيب ؟ امتلأت حقائب تاريخه بمئات من الشيع والفرق والمذاهب الدينية والفلسفية والكلامية ، حتى لقد أصبح لكل لسان ذرب مذهب خاص به ولكل قلم ممتلىء أمة فكرية تتبعه .

كان العلماء فيه أشبه بالثوار فى عصور الفوضى ، فى كل قرية ثائر ، وفى كل طريق فارس ملثم أو سافر .

وكان لا بد لتلك الأمواج من المذاهب والنحل والشيع أن تطغى وأن تثور ، وكان لابد لها أن تتقاتل وتتطاحن ، وكان لا بد لها أن تملأ الدنيا دوياً وزلزالا ؟ ومن ثم شهد هذا المجتمع أعنف حرب فكرية فى التاريخ .

وهل هناك من عجب إذا رأينا سلطان الدين يضعف ويتوارى ، وهل هناك من عجب إذا رأينا المذاهب الفلسفية تسود ورأيناها

أيضاً تجمح وتغرق فى سبحات فكرية عجيبة الألوان والظلال ، وتأملات روحية غريبة شاذة متنافرة غير متماسكة .

وأحس رجال الدين بالخطر ، وأحسوا أكثر من ذلك بأن سلطانهم الدينى مهدد بالزوال ، بل لقد شاهدوا تاج القداسة يفارق رؤوسهم فى قفزة سريعة ليختال فى نوره رجال لا يعترف رجل الدين إلا بزندقتهم ، رجال فى طليعتهم الفارابى وابن سينا ومن شبه الفارابى وابن سينا .

أحس رجال الدين بالخطر فأشعلوا أصابعهم ناراً وأطلقوا أقلامهم بروقاً ، ولكن النار نالت منهم أكثر مما نالت من خصومهم . ولعل من أكبر أسباب الفشل فى ثورتهم ما كانوا فيه من تفرق ، وما كان بين طوائفهم من خصومة ولدد . فقد كان لكل منهم عصبية وأنصار وكان هؤلاء الأنصار يتطاحنون ويتمزقون ، فالحنفية تناهض الشوافع فى المشرق ، والمالكية تطرد ولا تطيق سواها فى المغرب والأندلس ، والحرب غير خافية بين الأشعرية والمعتزلة وبين الباطنية والسنة .

وفى هذا المحيط الغريب الثائر ، وبين تلك الحرارة العلمية

نشأ الغزالى . فكانت نشأته على هامش بركان ، وكانت معارفه ملتهبة حارة لأنها ولدت بين اللهب .

درس الغزالى كل ما فى عصره من خير وشر ، ولم يهيئ نفسه فى مطلع حياته لفن من الفنون ، بل اندفع فى زحام الفكر جباراً متوغلاً غير هياب ولا متحفظ .

ثم انطوى على نفسه ، وقد شك فى حقيقة كل علم ، كما شك فى أهداف الفرق والنحل والمذاهب .

شاهد الغزالى أن الإسلام قد انتقل من القلوب إلى العقول ، فانقلب إلى ملاحاة منطقية لفظيـة ومجادلات فقهية جامدة .

كما شاهد المذاهب السياسية وقد تقنعت بستار الفلسفة تارة وبستار الدين تارة أخرى ؛ فإن خلصت من هذا وذاك ، فهى لم تخلص تماماً من ميراث اليونان الوثنى ، أو من سبحات الأفكار المضللة .

فأرسل الغزالى صيحة قديمة جديدة ، قديمة لأنها صيحة الإسلام فى الجزيرة العربية منذ قرون . وجديدة لأنها دوت

فى مجتمع أوشك ، وقد غرق فى بحور الجدل والسفسطة ، أن ينسى رحيقه الأول .

كانت قوة الغزالى التى خلدته كحجة للإسلام ، أنه استطاع أن يقف تلك التيارات المتدافقة من المحاورات الفلسفية والمناظرات الجدلية والمنازعات الفقهية ، وأن يجعل القوة الإسلامية المناهضة لتلك الزوبعة تتركز فيه وتتمثل فى تعاليمه وصيحاته المستمدة من الكتاب والسنة .

كان أشبه بزعيم وطنى نبت فى شعب ممزق متخاذل واهى الروح فوحد صفوفه وجدد روحه وأحيا إيمانه .

نشأته وحياته

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ، جادت به الحكمة الخالدة فى مطلع عام خمسين وأربعمائة للهجرة . وتسع وخمسين وألف ميلادية ببلدة طوس من أعمال خراسان من أصل فارسى .

وكان والده فقير اليد غنى الروح يكسب قوته من مغزله ومن قيامه بخدمة رجال الدين والفقهاء فى مجالسهم وخلواتهم .

وقد حاول بعض المستشرقين وفى طليعتهم العالم الألمانى « وستنفليد » ، أن يثبتوا أن أسرته من أسر العلم الشوامخ ، ولكن الحقائق التاريخية لم تذكر لنا دليلاً واحداً يجرؤ على الثبات ، ولم تحدثنا عن ماضى تلك الأسرة شيئاً يطمئن إليه النقد العلمى .

ولا يحدثنا التاريخ كثيراً عن والده ، ولا يروى لنا من صفاته إلا ذلك الإجلال العظيم الذى كان يملك حواس ذلك الوالد حيال رجال الدين والعلم ، حتى إذا سمع واعظاً أو فقيهاً تضرع إلى ربه أن يرزقه إبناً خطيباً واعظاً أو عالماً متعبداً .

ولعل هذا الإحساس الملح والرغبة النفسانية العنيفة فى اكتساب المجد العلمى وتقديس الثوب الدينى ، قد ورثهما الغزالى عن والده ، وإنما فى صورة أخرى ، فقد أتيح للولد ما لم يتح للوالد ، ولعلنا فى هذا الضوء ؛ نستطيع أن نفهم النهم العجيب فى الغزالى الذى كان يدفعه فى إلحاح وإصرار إلى الاستزادة من العلوم والإقبال على المعارف .

ومات هذا الوالد والغزالى وشقيقه أحمد فى مدارج الطفولة الأولى ، فتعهدهما رجل صوفى فقير من أصدقاء والدهما الذى لم يترك لهما إلا صبابة من المال ضئيلة ، ولم يترك للصوفى إلا وصية واحدة هى قوله : « كانت أمنيتى فى الحياة أن أتعلم الخط فأريد منك أن تحقق أمنيتى فى نجلى هذين » . وقد بر الصوفى بتلك الوصية فاهتم بهما علماً وخلقاً ، حتى نفدت صبابة المال التى تركها والدهما ، فضاقت يده عن طعامهما والإنفاق عليهما فقال لهما :

« اعلما أنى انفقت عليكما ما كان لكما ، وأما أنا فرجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما وأصلح حالكما فما لكما ألا تلجآ إلى مدرسة ، فإنكما طالبان للفقه عساه يحصل

لكما مقدار قوتكما[1] حتى كان الغزالى يقول كلما عاودته تلك الذكرى « طلبنا العلم لله فأبى إلا أن يكون لغير الله » .

وقضى الغزالى فترة فى إحدى مدارس العلم الدينى فى بلدته، قرأ الفقه خلالها على : « أحمد بن محمد الطوسى ، ثم جنحت به نفسه إلى الاستزادة من العلوم ، فهاجر إلى جرجان إلى الإمام العلامة « أبى نصر الإسماعيلى » .

وفى جرجان ابتدأ الغزالى يكتب ما يتلقى من علوم أستاذه ، ولكن يظهر أنه لم يستفد عقلياً مما كتب أو استمع ؛ بل كان يقرأ أو يكتب فى نهم وسرعة دون عناية بالفهم والهضم يدل على ذلك تلك القطعة الطريفة الساذجة المكتوبة بقلمه فى اعترافاته التى أسماها « المنقذ من الضلال » والتى تدل على تلك الفترة من حياته قال :

« قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا فتعقبتهم فالتفت إلى مقدمهم ، وقال ارجع ويحك وإلا هلكت

(١) مجانية التعليم وإطعام التلاميذ بالمجان سبق بها المسلمون العالم أجمع . ومن بقايا ذلك التعليم المجانى بالأزهر الشريف بل منح الطلاب فيه إعانات مالية شهرية .

فقلت له أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط فما هى بشىء تنتفعون به ، فقال لى ، وما هى تعليقتك ، فقلت كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ، ومعرفة علومها ، فضحك ، وقال : كيف عرفت علمها ، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها و بقيت بلا علم ، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى" المخلاة ، فتركت تلك الحادثة فى نفسى أثراً كبيراً ، وقلت فى نفسى: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى » .

وتلك القطعة التصورية من قلم الغزالى تدلنا على صفة كان لها أكبر الأثر فى إعداده ورسالته ، وهى تأثره العجيب بالجانب الدينى الصوفى من الحياة ، فهو يرى فى جواب قاطع الطريق رسالة سماوية ونطقاً ربانياً لإرشاده فى أمره وطرق تعليمه .

عاد الغزالى من جرجان إلى طوس وانقطع انقطاعاً تاماً كما يقول إلى العـلم ثلاث سنوات حتى حفظ جميع ما درس واستوعب ما قرأ بحيث لو قطع عليه الطريق وسرق ما معه

لم يتجرد من العلم والمعرفة . والعلم فى نظر الغزالى كان خلال تلك المدة غير واضح المعانى . غير واضح الأهداف ، فهو يدرس ويحفظ على طريقة عهده ، كتب الدين وآراء المذاهب والفقهاء ، ليكون يوماً ما من رجال التدريس أو القضاء أو قد يسعده الزمان فيلتحق ببطانة عظيم أو أمير أو سلطان .

ولكن تلك الروح العظيمة التى أعدت لغير ما يعدها صاحبها ، لم تقنع بمـا وصلت إليه من دراسات ، ولم تطمئن إلى ذلك اللون من التعليم ؛ بل لم تقنع بمـا ألقى إليها من يقين إذ هى تنشد معانى أخر ، وتتلمس باباً إلى النور لم يزل خافياً .

وضاقت معارف طوس بالغزالى ، كما ضاق بها ، فرحل إلى نيسابور إحدى مدن العلم والنور فى عهده ، وهناك اتصل بإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى علم عصره فى التوحيد والإلمام بمذهب الأشعرية وطرق الجدل والأصول والمنطق .

وفى نيسابور ابتدأت خطوط تلك النفس العظيمة تتكون وتتضح ، وابتدأت آفاق الغزالى تتفتح وتتسع ، فهو يشاهد فيها دنيا جديدة ومجتمعاً جديداً مزدحماً بأنفاس العلماء كما هو مزدحم بأنفاس الحياة .

وفى نيسابور ابتدأ إيمان الغزالى بعلم الفقه يضعف ، كما أخذ إجلاله للعلماء يتضاءل ، فهو يدرس ويستمع إلى آراء المذاهب ، ويعجب لتفرقها وتخاصمها ، كما يعجب لطرائقها فى البحث والجدل . ويعجب أكبر ما يعجب لخلوها من الروح والإيمان .

وفى نيسابور شاهد الغزالى ولامس أخلاق العلماء والفقهاء ، فإذ هى ضروب عجيبة من الرياء والنفاق ، وألوان مبتكرة من الجشع والتهالك على متاع الحياة ، فشك الغزالى فى أخلاقهم كما شك فى علومهم ، وبذلك انتهى إيمانه بالعلم التقليدى ، فأقبل على الفلسفة ينشد لديها الإيمان ويرجو عندها متاع العقل والقلب والروح .

ولكن الفلسفة خذلته أكثر مما خذله العلم التقليدى ، فهو ينشد إيمان الروح ؛ إيمان القلب ، والفلسفة وإن أرضت العقل الحر أو العقل المعتز بنفسه ، أو العقل الذى لا يطيق الخضوع ويتعالى بالكبرياء ، فهى لا ترضى القلب الذى ينشد السلام ، ولا ترضى الروح التى تنشد الاطمئنان ، فأضاف الغزالى شكوكاً جديدة فى الفلسفة إلى شكوكه القديمة فى العلوم التقليدية .

وبذلك تحرر الغزالى من كل قيد فكرى ، كما تحرر من

كل قيد يقينى ، فانطلق حراً طليق الفكر ينشد الهداية بين المذاهب والنحل ويتلمسها فى الشك تارة ، وفى التأملات الغامضة أخرى ، غير مثقل العقل بميراث يقيده ، ولا مشغول اليدين بعلم خاص يجله ويكبره .

وأمسى الغزالى وأصبح فإذا به المتهكم الأكبر فى جيله . وعرفته محافل العلم أستاذاً بارعاً متعمقاً فى كل بحث ، مغرماً بالمجادلات والمناقشات ، ومغرماً أشد الغرام بالتحطيم والتجريح ، فلم يغادر مذهباً من المذاهب لم ينقضه ، ولم يدع فرقة من الفرق بدون تجريح وإيلام .

وقد أوتى أسلوباً بارعاً ، وقلماً ساحراً وعرضاً عبقرياً ، وتلك أسلحة فكرية رهيبة عظيمة الخطورة إذا وضعت فى يد متهكمة مغرمة بالقتال والصيال ، مغرمة بالبحث والجدال علّها ترضى صياح الشك فى أعماقها ، أو ترضى الظمأ إلى اليقين فى روحها .

فلا عجب إذا رأينا ملاحم متتابعة متلاحقة شديدة الأوار تنشب بين الغزالى وجيله ، وهى ملاحم أضافت إلى التراث الفكرى كنوزاً من المعرفة لا يزال شعاعها واضح النور والسناء .

طريقته فى القراءة والبحث :

ونحن ننقل من كتابه « المنقذ من الضلال » قطعة توضح تلك الفترة الثائرة من حياته وتهدى إلى طريقته فى دراساته للمذاهب ، ومهاجمته للنحل والأفكار والعقائد قال :

« ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ ، وقد أنافت السن الآن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأ كشف أسرار مذهب كل طائفة .

لا أميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لاأغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولافلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجاولته ، ولاصوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفته ، ولا متعبداً إلاوأترصد مايرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً إلاوأتجسس

وراءه للتنبه إلى أسباب جرأته فى تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان شبابى ، غريزة وفطرة من الله وضعت فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى . »

تلك هى صورة الغزالى العالم الباحث ، وذلك هو الوجه الذى عرف به فى نيسابور التى ارتبط فيها بصداقة روحية مع أستاذه إمام الحرمين حتى رشحه ليقوم مقامه فى التدريس .

ولكن أستاذه وصديقه ، لم يلبث ان انتقل إلى الرفيق الأعلى، ففارق الغزالى نيسابور حزين القلب والروح ، فارق الغزالى نيسابور، وقد فقد الشعاع الروحى الأخير الذى كان يحبسه عن المغامرة الكاملة فى الحياة ، فارقها إلى بغداد ينشد فيها مجد الدنيا ومتاع الروح وليقارن فيها حظه بحظوظ العلماء والدارسين .

الغزالى ينشد متاع الحياة :

كانت حياة الغزالى منذ شعاعها الأول حياة فكرية خالصة حياة عازفة عن الجاه ومتاع الحياة ، وكانت نهاية تلك المرحلة أيامه الأخيرة فى نيسابور .

وها نحن أولاء نشاهده فى طريقه إلى بغداد ، يحدث نفسه بوداع حياة واستقبال أخرى ، فهو لم يلق فى حياته الأولى سوى عذاب فكرى متلاحق ، بل لم ينعم ولم يذق إلا مرارة المعارك والخصومات الحارة باحقادها ومتاعبها ، ولم يمتع إلا بلقيمات غير دسمة ولا سائغة .

فكر متوثب ملتهب لا يهدأ ولا يطمئن ولا يشعر بلذة اليقين وعلم لم يكسب صاحبه ما يكسبه العلم لأهله فى عهده من متاع الحياة ومباهج السيادة والحكم ، فلم لا يقذف بكل هذا وجه الفضاء ؟ و إذا كان هذا الفكر الملح فى شكه .. الملح فى ثورته .. الملح فى تهكمه لا سبيل إلى إمتاعه و إرضائه ، فإن قسوة الحياة يمكن أن تبدل بطيب المتاع ، وجمال المظهر . وعزة الاتصال بالولاة وما فوق الولاة من الأمراء والملوك .

و بغداد فى ذلك التاريخ مهوى أفئدة رجال العلوم ، ومهوى أفئدة طلاب المغامرة وعشاق المجد . وفى بغداد يسوس الملك مغامر عالم « نظام الملك » الذى ابتدع المدارس النظامية وأسسها على علوم السنة لينافس بها أزهر الفاطميين وليطاول بها علوم الشيعة التى تلقى فى أزهرهم .

ومثل هذا الأمير فى حاجة إلى عالم متفوق بارع فى الجدل ، بارع فى الخصومة ، بارع فى دعم الحجج والبراهين ، براعته فى نقض الحجج والبراهين .

والغزالى اللماح يدرك مطلب الأمير ، ويدرك ما يمكن أن يظفر به لدى الأمير .

ولذا فقد اعتزم أن يكون مقدمه ضخما فخما لا ينسى ، واعتزم أن يطلع الأمير فى اللحظة الأولى على مقدار نبوغه وبراعته فى الحوار والجدل ، وتفوقه فى المذاهب والنحل .

الغزالى ونظام الملك :

جاء فى كتاب المقفى :

فلما مات أبو المعالى خرج الغزالى قاصداً نظام الملك ، وناظر الأئمة والكبار فى مجلسه وقهر الخصوم وظهر كلامه على الكل واعترف بفضله الخاص والعام ، وتلقاه نظام الملك بالقبول وأحله محل النفوس . وأجله إجلال الرءوس ، ثم ولاه التدريس بمدرسته النظامية ببغداد وأمره بالتوجه إليها فقدم بغداد سنة أربع وأربعمائة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره . إلى أن يقول:

« ثم درس بالنظامية فأعجب الكل بحسن كلامه وكمال فضله وعبارته الرشيقة ومعانيه الدقيقة وإشاراته اللطيفة ونكته الظريفة » .

وفى بغداد تمتع الغزالى بما اشتهى من جاه ومال وسيادة ، وأحله نظام الملك مكاناً علياً ، واتسعت حلقات دروسه واشتهر بفتاواه الشرعية البارعة ، وابتدأ فى تأليف كتبه التى سيخلد بها.

وقد كان لنظام الملك تأثير بعيد المدى على الغزالى ، فنظام الملك صوفى شديد التعلق بالصوفية شديد التعصب لمبادئهم وطرائقهم ، مسرف أشد الإسراف فى البذل عليهم وإعداد التكايا لهم .

حتى ليواجه الخليفة بتلك القولة الغريبة وهو يعاتبه لإسرافه فى النفقة عليهم وإهمال الجيوش « لقد أقمت لك عباداً بالليل لو صاحوا لزلزلت الدنيا بخصومك ومادت الأرض بهم ».

كان لنظام الملك فضل توجيه الغزالى إلى التصوف والصوفية. وقد كان شديد الخصومة لهم شديد الإسراف فى نقدهم ، فاندفع الغزالى كعادته يبحث كتبهم ويغشى مجالسهم، بل ويشترك فى حلقات ذكرهم ، ولكن تلك المبادىء السمحة لم تقنع الغزالى بل

لم تستطع أن تنتزع ريشة واحدة من طائر الشك المحلق فى رأسه (١) فأعرض عنها كما أعرض عن العلوم التقليدية والفلسفية من قبل .

وظن أصدقاء الغزالى وأعداؤه معاً ، أنه قد بلغ الغاية من السعادة ، فقد حقق لنفسه منتهى آمال أمثاله من رجال الدين والتدريس.

فهو صديق الأمير وعالمه ، كما يتولى التدريس فى أكبر جامعة علمية فى عصره ، له فيها المكان المرموق والكلمة العالية ، وأصبحت حلقات درسه ملتقى الأمراء والوزراء والعلماء ، وغدت فتاويه أشبه بالفرمانات الملكية حتى ليستأذنه الأخفيش فى غزو الأندلس ، كما يطلب فتواه فى جواز توليته ملك الأندلس مع المغرب وتلقبه « بأمير المؤمنين » .

وفى هذا الجو الساحر الزاخر بمتع الحياة وسيادة الفكر ، وبين تلك المكانة العليا التى غدت للغزالى فى العالم الإسلامى من بغداد إلى تخوم الهند وسواحل المحيط الأطلسى ، كان الغزالى يتعذب

(١) درس الغزالى مبادىء الصوفية مرتين ، مرة قبل اعتكافه ، فلم يؤمن بها . وأخرى بعد الاعتكاف فتحمس لها وحمل لواءها .

ويتألم ويشقى شقاء لا يعـــرفه إلا العلماء، ولا يتصوره إلا رجال الفكر.

كان لهب الشك يحرقه فى صمت ، وكان تعطش روحـه العميق إلى الإيمان يفسد عليه متع الحياة ؟

وكان الغزالى كثيراً مايحاور نفسه ويجادلها ، ويقلب أفكاره ويفندها ، ويختلى بقلبه يسأله الإيمان بعد أن أضله العلم والعقل فلا يسمع من قلبه جواباً ولا يرى فى حياته للأمل باباً .

وإذ به فجأة ينقطع عن الدرس والفتياء؛ وإذ به فجأة يلازم الفراش لغير علة واضحة ، وإذ به يجافى الطعام، وينعقد لسانه عن الكلام ، وإذ بقوة هضمه تبطل ، وإذ به فى حالة ذهول كامل حار فيها الأطباء وعجز العلم عن توضيحها وتعليلها .

حتى إذا يئس طبيبه من أمر مرضه ، قال هذا أمر ينزل فى القلب ولا رجاء فى حياته إذا لم يتغلب على مشاغل نفسه ولم يخفف وطأة إجهاد ذهنه .

ولـكن هذا المريض الفاقد للحركة وشهوة الطعام والكلام ينهض فجأة إلى الحج ، ثم إذ به يعلن للدنيا اعتزاله التدريس ومظاهر الحياة وانقطاعه لعبادة الله .

أسباب عزلته بقلمه :

يقول الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » ، موضحاً هذا الصراع الخالد :

« فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من سنة ، وأخيراً جاء دور العمل ، وجاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، وقد قفل الله لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفين إلىّ ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا يستطيعها ألبتة ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لاحظت أعمالى فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا معتقل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة .

ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فإذاهى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت . فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافى الأحوال . فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة ، ألا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فتفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ، فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها ، وتركت هذه الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمن السلم

الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفت إليه ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار . ثم يقول :

ولما أحسست بعجزى وسقط بالكلية إختيارى . التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة . وأنا أدير فى نفسى سفر الشام . حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام فى الشام ، فتلطفت فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبدا » .

إذن فالغزالى يجعل اعتكافه لأسباب نفسية غامضة وسبحات دينية غير واضحة أنقذه الله منها إلى الهداية والتوفيق ؟

ولكن العلامة ماكدولاند المستشرق الذى تخصص فى دراسة الغزالى ، يقول : إن هذا الاعتكاف يمت بأسباب وثيقة إلى الحياة السياسية المعاصرة له ويستدل على ذلك بحادثتين .

هل هناك أسباب سياسية :

لا ريب أن الغزالى باعتباره من أكبر رجال « الفتيا » فى عصره قد ساهم بعض المساهمة فى إحداث الدولة السياسية ، لا سيما وعصره من العصور المضطربة التى ساهم فيها الفقهاء والقضاة مساهمة كبرى فى الاحداث السياسية .

وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن يوسف بن تاشفين أمير المغرب بعد أن أعان سادة الأندلس على قهر « الفونس » ملك قشتاله طمع فى الأندلس ، فألحقها بملكه بعد استفتاء علماء العالم الإسلامى فأفتوه بحقه فى ذلك ، ومنهم الغزالى ، بل لقد أفتوه أيضاً بجواز تلقيب نفسه « بأمير المؤمنين » ، وفى هذا إغضاب أى إغضاب لسادة بغداد .

ويذكر « ماكدولاند » أيضا أن الخليفة المستظهر أمره بأن يضع كتاباً يرد به على الباطنية حينما وضحت أهدافهم السياسية فنادوا بفكرة « الإمام المعصوم » على طريقة الشيعة .

وقد اعترف الغزالى بأنه هاجمهم مكرهاً لأنه تلقى أمر الخليفة فلم يسعه مدافعته ، ثم قيل بعد ذلك بأن ما كتبه أغضب الخليفة

لأنه كان أقرب إلى تأييد الباطنية من مهاجمتهم وتفنيد مذاهبهم .!

ولكن اعتراف الغزالى لا يرضى النقد العلمى فى توضيح أسباب عزلته . كما أن رأى العلامة ماكدولاند لا يلقى ضوءاً كافياً يستريح إليه ضمير الباحث الذى يتحرى الحقائق ، إلا إذا كانت ترضيه دعوى بعض علماء عصره بأن ما حدث للغزالى . إنما هو عين أصابت الإسلام فيه . !

الدوافع الحقيقية لعزلته :

فهل حقيقة أن الغزالى اعتزل التدريس لأنه كما يقول ، لم تكن نيته فيه خالصة لله بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت .

أم أنه اعتزل التدريس والحياة لتحول وجه الخليفة عنه بتحيزه إلى يوسف بن تاشفين أمير المغرب . !

إننا فى حاجة إلى كثير من السذاجة لنصدق الغزالى إذ يقول فى سذاجة إنه ترك التدريس لأن نيته فيه غير خالصة لوجه الله و إنما باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت .

وهل هناك نفس بشرية تجردت تجرداً كاملا من هذا الباعث

والمحرك ، أو تحاسب على هذا الباعث والمحرك ؟ وما معنى أن نيته فيه لم تكن خالصه لوجه الله ؟ هل أجبر الغزالى على أن يلقى دروساً معينة تتعارض مع روح الإسلام . ؟

وإذا لم يكن هذا . فما معنى هذا الكلام الغريب الساذج ؟ وهل إذا ترك الغزالى التدريس يكون ذلك مبرراً لتركه الحياة واعتكافه . ؟

فإذا أعرضنا عن هذا ونظرنا أو صدقنا العلامة ماكدولاند فى أن عزلته كانت سياسية فإن الأسباب التى ذكرها لا تبرر اعتكاف الغزالى بل إصراره على الاعتكاف طوال حياته .

إن اعتكاف الغزالى كان باعثه تلك المعركة المشبوبة بين إيمانه وشكه ، وهى معركة لعبت فى حياة الغزالى وتفكيره دوراً خطيراً فاصلاً .

شك الغزالى فى كل علم درسه ، شك فى قيمة العلوم كما شك فى مظاهر الحياة وأهدافها وغايتها ، شك فى كل ما يقع تحت الحس وفى كل ما يثبته العقل . شك حتى فى تفكيره ! ثم التمس الهداية عن طريق الحواس والعقل ونشدها فى كل أفق شاهد فيه الضياء والنور ، أو خيل إليه أن فيه الضياء والنور .

ولنا أن نسأل هل شكوك الغزالى طارئة ، وهل حقيقة أن الشك لم يظفر بقلبه إلا فى المدرسة النظامية ، وهل حقيقة أنه اعتزل الطعام والكلام لأنه وجد نيته فى التدريس غير خالية من حب الشهرة والمجد ؟

عراقته فى الشك :

إن نظرة إلى حياة الغزالى ترينا أنه عريق فى الشك فهو يحدثنا أنه كان فى مطالعاته يخوض بحور العلم خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأنه كان يتوغل فى كل مظلمة ، ويتهجم على كل مشكلة ، ويتفحص كل عقيدة ، لا يميز بين محق ومبطل . ومتسنن ومبتدع ، لا يغادر باطنياً إلا ويحب الاطلاع على مبادئه ، ولا ظاهرياً إلا ويريد الإحاطة بآرائه ، ولا زنديقاً إلا ويتجسس على ألوان زندقته ، ولا متعبداً إلا ويجتهد فى تفهم دوافع عبادته ، كل ذلك منذ شبابه .

أليست هذه أكبر آيات الشك ؟ وأليست هذه نذر عدم الإيمان أو الاطمئنان إلى مذهب من المذاهب أو لون من الألوان؟

وقد أخطأ كثير من مؤرخى الغزالى حينما ظنوا أن فترة

الشك إنما ظفرت بقلبه وهو يدرس فى المدرسة النظامية ، وأنه قد وثب من الشك إلى التصوف وثباً .

ويستدلون على هذا بأن كتب الغزالى التى كتبها قبل ذلك التاريخ قد خلت من جموح المتشكك ، ووثبات عدم الإيمان .

ويقولون أيضاً إن عصر الغزالى كان من أكبر عهود الشك والتلون فى التاريخ ، فليس ثمة من تقاليد أو رهبة تمنع الغزالى من المجاهرة بشكه فى مثل هذا المحيط وهو الجرىء المتوثب .

ويظنون بهذا أنهم قد أقنعوا أنفسهم وأقنعوا التاريخ معهم . فلو تأملنا قليلا فى كتبه التى كتبها فى تلك الفترة لرأينا عجباً ؟ لرأينا الغزالى المؤمن فيما يظهر ، هو أكبر شاك فيما يبطن .

ومن يقرأ مقاصد الفلاسفة يلمح من بين سطوره أن الغزالى يكتب ليقنع نفسه ، ولهذا فهو يجمع شتيتا من حجج الفلاسفة ويعرضها ويبسطها ويتلاعب ويفتن فى تصويرها وتلوينها وكأنه يتغزل فيها ويناغيها .

وقد عرف عنه هذا فى ردوده على الباطنية ، فقد عمد إلى توضيح مذاهبهم تمهيداً لمهاجمتهم . ولكنه كان فى توضيح

مبادئهم ، أكثر منهم أنفسهم بياناً وفصاحة وإغراء فى عرض حججهم وإبراز قوة الإقناع فيها .

فلما هاجمهم لم يغن عنه هذا شيئا فى اتهامه بالميل إليهم والمحبة لهم .

ومن يقرأ تهافت الفلاسفة يلمس أنه كتبه أولا وقبل كل شىء ليرضى شكوكه ، فهو يهاجم الفلسفة فى عنف وفى حرارة . ويجمع فى يديه جميع الأسلحة الفكرية التى يؤمن بها والتى لا يؤمن ليحطم الفلسفة ومذاهبها ودعاتها ، بل ليحقر من شأنها ولينال من أفكارها وطرقها العقلية فى إصرار وعناد .

ثم من يقرأ كتبه المعاصرة لهذا التاريخ يرى تبايناً عجيباً فى آرائه ، فهو يهاجم الفلاسفة محتجا بآراء المعتزلة والأشعرية ، ويهاجم المعتزلة محتجاً بأهل السنة ، ويهاجم رجال الفقه محتجاً بالتصوف .

وإذن فالغزالى عريق فى الشك ، أو على الأقل لم يهب نفسه لفكرة واحدة ولم يستأثر بقلبه إيمان معين .

ولكن الغزالى امتاز بين المتشككين بأنه نشد الهداية فى صدق وحرارة ، وتلمسها راغباً حقاً فى الظفر بها . كان يشعر

بحنين ملح إلى الاطمئنان واليقين ، يطاول تلك الرغبة الملحة في الشك والجدل .

ومرجع هذا أن الغزالى كان يلتقى فى قلبه خليط من شكوك عقله ، بخليط من إيمان قلبه ، فقد كان عقله أدنى إلى عقول العلماء الذين لا يؤمنون إلا بالمنطق وحقائق الموازين العلمية بينما كانت روحه أدنى إلى أرواح الزاهدين العابدين .

ومن هنا نفهم السر فى الصراع المشبوب أبداً بين روحه وعقله ، ومن هنا ندرك السر فى أنه كلما اشتدت به ثورة الشك كان يأخذه المرض حتى يعجز عن الطعام والكلام .

وقد ثارت به فى المدرسة النظامية عندما بلغ غاية عليا بين العلماء ورجال المال والجاه رغبة ملحة إلى الإيمان ، كما ثارت به ثورة من الشك حارة قاسية .

الأولى تذكره بالآخرة ونعيمها ورضاء الله وجلال القرب منه وتذوق رحيق الرضا والسلام واليقين .

والثانية تمنيه وتعده بالجاه والمال والتفوق العلمى ولذة النصر فى ميادين الجدل والحوار ، وتنذره أنه قد يفارق كل هذا ويحرم

من كل هذا فيشقى ويتألم ثم يحاول الرجوع فلا يستطيع فيفقد الراحتين ويحرم اللذتين .

وتردد الغزالى طويلا بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة ، حتى فقد إرادته وأضاع اختياره وأصبح ألعوبة لأفكاره وأهوائه .

احترق الغزالى فى تلك الفترة بلهب الحيرة والشك وتلاطم الفكر وحيرة العقل والقلب والحس حتى سرى الأمر من الروح إلى الجسد فأمسك لسانه ، حتى فقد الكلام وأورثه ذلك حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم . فقال الأطباء : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا علاج إلا بزوال علته الذهنية والفكرية .

وفى تلك الظلمات ، وبين النار والدخان والنور الذى يلوح من وراء الأفق ، التجأ الغزالى إلى الله ، يطلب النجدة ، ويطلب الإيمان ، وينشد اليقين والسلام ، فأجابه الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وأراه من الأسرار ما سهل عليه الإعراض عن الجاه والمال والأصحاب .

الهـــداية :

فارق الغزالى بغداد ، بل فارق حياته الأولى بشكوكها العقلية الملحة ، ومتاعبها الدنيوية ، وملاذها الجسدية ، ليستبدل بالشك إيماناً ثابتاً لا تجرؤ عليه الشكوك أو الخيالات وبدنيا القراءات والمجادلات ، دنيا من تأملات الفكر وكشف الروح ، وبمتاع الجسد متاعاً علوياً .

فارق الغزالى بغداد لينطلق سابحاً فى أحلامه وتفكيره ، وليبتدع ما شاء له الإلهام من تراث خالد .

فارق المنصب الرفيع ، والعيش الهنىء ، للزهد والتقشف ، والتأملات العليا ، وهو انقلاب بعيد المدى » ، لا فى حياته وتاريخه بل فى تاريخ الفكر الإسلامى إلى يومنا .

وهذا الانقلاب هو سر خلود الغزالى ، إذ به جدد نفسه ، بل من آثاره أن جدد الغزالى الحياة الفكرية لعصره ، بل كان من نتائجه أن طبع القرون التى تلته بطابعه وتفكيره

فارق بغداد وفارق التدريس ليلجأ إلى الله فى بيته الحرام ، بل ليهنأ بالإيمان ومعرفة الله عن طريق الإتصال الشخصى به ،

جاعلا الوساطة فى ذلك الروح لا العقل . جاهد الغزالى نفسه جهاداً خالداً ليخلصها من شوائب الحياة حتى تصفو صفاء يؤهلها للمعرفة واليقين والتلقين .

يقول الغزالى :

« نظرت إلى نفسى فرأيت كثرة حجبها فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوماً[1] فانقدح لى من العلم ما لم يكن عندى أصفى وأرق منه مما كنت أعرفه فنظرت فيه ، فإذا فيه قوة فقهية ، فرجعت إلى الخلوة ، واشتغلت بالمجاهدة والرياضة أربعين يوماً فانقدح لى علم آخر أرق وأصفى مما حصل عندى أولا ، ففرحت به ثم نظرت فيه فإذا فيه قوة نظرية فرجعت إلى الخلوة ثالثاً أربعين يوماً فانقدح لى علم آخر هو أرق وأصفى فنظرت فيه فإذا فيه قوة ممزوجة بعلم . ولم ألحق بأهل العلوم اللدنية ، فقلت إن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى » .

---

(١) قال الله تعالى فى سورة الحديد « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » . وفى الحديث الشريف « من قام لله أربعين صباحاً جعل الله الحكمة فى قلبه تنفجر على لسانه »

وبهذا سلك الغزالى إلى الهداية مسلك الكشف الروحى ، والتجأ إلى الاعتكاف والمجاهدة ليطهر نفسه ، ويعدها للانقلاب الفكرى العظيم.

خاتمة حياته :

ومن البيت الحرام رحل الغزالى إلى دمشق ، ويقول المقريزى فى المقفى : « إنه جعل وهو فى دمشق يعكف فى زاوية فى منارة الجامع الأموى ويلبس الثياب الخشنة ، ويتقلل فى مطعمه ومشربه واعتزل الناس وأخذ فى تصنيف كتابه إحياء العلوم ، وذهب يطوف المشاهد ويزور الترب والمساجد ، ويروض نفسه على المجاهدات ويكلفها مشاق العبادات إلى أن لان له صعبها وسهل له بعد ضيق رحبها » .

ومن ثم صفت روحه صفاء أهلها لاقتباس النور من منابع النور العليا فألف أخلد كتبه ومنها الإحياء ، كما ذهب إلى بيت المقدس واعتكف فى المنارة الغربية من المسجد الأقصى ثم رحل إلى الإسكندرية .

ثم عاد إلى وطنه خراسان فعاش معتزلا منهمكا فى التأمل

والمجاهدة والتفكير . ومن عجب أنه عاود التدريس فى المدرسة النظامية بنيسابور ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ووزع أوقاته بين تلاوة القرآن ومجالسة أرباب القلوب والتدريس ، والكشف الباطنى ، كما أخذ يدرس علم الحديث .

وكانت وفاة الإمام الغزالى بطوس يوم الإثنين رابع عشر من جمادى الأخرى سنة خمس وخمسمائة الموافق ثمانية عشر من ديسمبر سنة ألف ومائة واحدى عشرة ميلادية ، ونقل ابن الجوزى فى كتاب الثبات عن أحمد أخى الغزالى أنه قال :

«لما كان يوم الإثنين وقت الصبح توضأ أخى أبو حامد وصلى ، وقال على بالكفن فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال سمعاً وطاعة للدخول على الملك ثم مد رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار»

الشك مقدمة اليقين .

تتراوح حياة الغزالى بين فكرتين ، لكل منهما أكبر الأثر فى دراساته وتوجيهاته ، و إلى هاتين الفكرتين ترجع جميع الألوان والصفات المميزة لميراثه الثقافى ، وهما الشك والإيمان ، فهما مفتاح

الوصول إلى تفهم شخصيته وأساليبه وأفكاره .

وقد آمن الغزالى بالشك واعتنقه صراطاً علمياً ، يقول فى خاتمة كتابه « ميزان العمل » « ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً ، إذ الشكوك هى الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

وإذن فالشكوك فى مطلع حياة الغزالى كانت طريقه إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال . تلك هى شريعة الغزالى وهذا هو منهاجه العلمى ، وقد درس العلوم التقليدية والفلسفية والمذهبية فى هذا الضوء .

وقد سبق الغزالى بجعله الشك مذهباً من مذاهب العلم ، وفى إيمانه بأن الشكوك هى طريق الحقائق « ديكارت » و « دافيد هيوم » وهما أئمة هذا المذهب فى الفلسفة الأوربية الحديثة ، بل لقد أصبح الشك مذهباً من مذاهب العلم المعاصر بل لوناً من ألوان التجديد والابتكار .

ولا ريب فى أن شكوك الغزالى قد أفادته فائدة كبرى فى دراساته ، فقد علمته أن يناقش قبل أن يؤمن ، وعلمته أن لا يقنع بما علم بل يطلب المزيد أبداً .

وبهذا كان الغزالى يجدد حياته العلمية على فترات متعاقبة . كما دفعه الشك إلى عدم الرهبة من الخرافات المقدسة التى كانت تسبح فى كتب عصره ، أو التزييفات الدينية المحاطة بجلال وهمى فى أذهان العامة . كما علمته عدم الرهبة أيضاً حيال الأفكار والمذاهب التى تستند إلى أسماء خلدها الفكر والتاريخ . وبهذا نجا من التقليد كما نجا من الخضوع لفلسفة الأغريق .

بل إن هذه الشكوك هى التى أعدته لتلك الوثبة الكبرى إلى سماء الإيمان ، وهى التى سهلت عليه عند ما حصل اليقين اعتزال الحياة والناس ، لينعم بمتاع عزيز على الحياة والناس .

وعظمة الغزالى تمت بسبب وثيق إلى هذا الشك ، فهو الذى حمله على دراساته الكبرى ومجادلاته العظمى واشتباكاته المتعددة مع النحل والفرق والمذاهب ، فلما حصل عنده اليقين كان يقين القوى الواثق الذى لا يدانى ولا يمارى .

كما أن هذا الشك كان علامة عقل كبير ، لا يؤمن بقيود

التقليد ، بل يؤمن بنفسه أولاً فيجل ما يهدى إليه العقل ويرفض ما سواه .

ذلك الروح العظيم وذلك العقل الكبير ، وهذا الاطلاع الشامل ، وهذا الصراع بين العقل والروح ، بين المشاعر والأحاسيس المختلفة ، هو الذى أعد الغزالى لرسالته الخالدة .

فقد خرج الغزالى من هذا الصراع العنيف ، وذلك التجاذب بين الدنيا والآخرة طاهراً نقياً كالسبيكة الذهبية تزيدها النار لمعاناً وإجلالا ، احترق الغزالى فتطهر فكراً وعقلاً وقلباً .

كما ظهر تأثير تلك المرحلة واضحاً فى تكوين آرائه الاجتماعية والخلقية ، لأنه استطاع أن يدرس فى نفسه تقلبات الأهواء وإغراءات اللذة ، ونعيم الطاعة ومتع العبادة ، وخبر التصادم بين شهوات النفس وميول القلب وأسرار الروح ، ولمس نقط الضعف فى الإنسان وعرف كيف تعالج وبأى أسلوب تداوى .

ولما آمن بعد شك كان إيمان الواثق الدارس لا إيمان المستسلم المقلد ، فكان إيمانه هو الذى أتاح له تلك القوة الروحية الكبرى التى هيمن بها على عصره وعلى العصور التالية .

كما أن صقل نفسه وعقله بالمجاهدات أكسبه روحاً تخفق

على القرطاس وتلمع بين الكلمات وتملك على القارىء أحاسيسه وتمنحه متاعاً لقلبه ومتاعاً لعقله ومتاعاً لروحه، ندر أن يوجد عند غيره من سادة القلم والفكر .

كان الغزالى بنشأته وتأملاته وتنقلاته وكشوفه الروحية ودراساته العلمية أصلح قادة عصره لتلك الوثبة التى جدد بها روح الإسلام فى القرن الخامس .

الغزالى يهدف نحو الحق :

كافح الغزالى شكوكه كفاحاً قوياً ، ولم يستسلم لها استسلاماً تاماً ، كما حدث « لدافيد هيوم » بل سعى إلى الإيمان جاهداً وطلب الحقيقة فى إلحاح ولهفة .

كان يحس ظمأ ملحاً إلى الإيمان بحقائق ثابتة ترضى عقله وترضى قلبه ، وترضى روحه ، وترضى المثل العليا التى ينشدها فى الحياة .

كان الغزالى يسهد ليله فى طلب الهدى وتلمس أبواب النور ، وكانت جفونه تذبل وتتألم ، وهو يبحث وراء الصواب ويطرق تلك الأبواب الخفية التى تتلمسها الروح الضالة فى شوق ولهفة علها تظفر بحكمتها وغايتها .

كان يحلم ويتأمل ويطيل التفكير والتأمل ، لأنه يشعر بفراغ الإيمان يملأ حياته فراغاً ، وببرودة الشك تميت حسه ، وتميت عواطفه ، وتميت جوانب الخير فى قلبه ، كان يحس ضآلة الحياة بلا هدف ولا يقين .

وقد جعل دراساته للعلوم وسيلة من وسائل الاهتداء ، كما هى وسيلة من وسائل المعرفة . وقد تدبر الفقه طويلاً وهو علم الأحكام والنظم الإسلامية ، وكان ينشد فيه أكثر مما ينشد فى غيره ، الإيمان ، ولكنه لم يجد فيه سكينة نفسه ، لأن الغزالى المشبوب الروح ، الحار العواطف ، لا ترضيه تلك المجادلات اللفظية ، ولا تلك الأقيسة الجامدة . فهو لم يحس قلوب الفقهاء تخفق فيما كتبوا ، ولم يلمس أرواحهم ترفرف فيما دبجوا ، وهو يريد شيئاً يرضى الروح والقلب .

ودرس علم الكلام ليصل إلى الله ، وليقنع نفسه بأدلته ، ويرضى قلبه بألحانه ونغمه ، وهو علم الشريعة وخلاصة فلسفتها وكنز مجدها ، ولكنه وجد الكلاميين يذكرون الله وصفاته وكأنهم يقيمون بناء هندسياً ، أو يجرون عملية من عمليات الحساب فى برودة الحاسبين وجمود عواطفهم وأحاسيسهم .

ودرس الفلسفة وهي مفخرة العقل البشرى ، ليرضي عقله بآياتها ثم يرضى يقينه برموزها ، ولكن الفلسفة زادته شكاً بافتراضاتها وألغازها وبقية الوثنية السابحة فى معارفها ، بل زادته نفوراً من موازين العقل ، ونفوراً من الاهتداء بوساطة العقل .

ولجأ إلى التصوف عله يشفى غلته الصادية ، فيذكر لنا « عبد الغافر » كيف أن أبا حامد بعد أن أوغل فى دراسة العلم والتبحر فيه ، عافه وتبرم به ، ولم يجد فيه أية جدوى له ، فدار بعينيه يتلمس ما يجدى على نفسه ويعده لزاد الآخرة ، فاهتدى بهدى « الفارمذى الصوفى » وأخذ عليه ، واشترك فى حلقات الأذكار معه ، ولكنه لم يبلغ من كل ما سلك شيئاً تطمئن به نفسه .

كان يمثل من جديد تلهف سيدنا ابراهيم الخليل وتعطش روحه إلى الإيمان ، فهو يتلمس الخالق فى ضياء القمر ، ثم يشاهده آفلا فلا يعجبه هذا الأفول ، بل يجل الخالق عن أن تعتريه صفة من صفات النقص والتحول ، ثم يرى الشمس فيفرح بها ويطمئن إليها ويظنها ربة الأكوان ، لأنها أكبر من القمر وأشد سناء وبريقاً ، ثم يراها غاربة فيجحدها وينكرها ، ويبحث عن خالقه من جديد حتى أتاه اليقين .

وفى هذا التيه الحار الملتهب عثر الغزالى على رجل شديد الإيمان ، شديد الورع هو الإمام الصوفى « يوسف النساج » فصحبه معه ، وأخذ يصقل روحه بالرياضة والمجاهدة حتى طرق معه باب اليقين والنور .

قال الغزالى :

« كنت فى مبدأ أمرى منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين ، حتى صحبت شيخى يوسف النساج ، فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله تعالى فى المنام فقال لى يا أبا حامد : فقلت أو الشيطان يكلمنى ؟ قال لا ، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست . ثم قال يا أبا حامد : زر مساطرك واصحب أقواماً جعلتهم فى أرضى محل نظرى ، وهم الذين باعوا الدارين بحبى » قلت : بعزتك إلا أذقتنى برد حسن الظن بهم ؟ قال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً ، فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسى » فاستيقظت فرحاً مسروراً ، وجئت إلى شيخى يوسف النساج فقصصت عليه المنام ، فتبسم وقال : يا أبا حامد هذه ألواحنا فى البداية ،

بل إن صحبتنى ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد، حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار فتصفو من الأكدار طبيعتك ، وترق على طور عقلك ، وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى : « إنى أنا الله رب العالمين » .

فكان هذا هو الفيصل ، وكانت تلك الرؤيا هى خاتمة الجهاد النفسى،وخاتمة الشكوك ، وبداية اليقين والإلهام، والخيط الأول فى الفلسفة الغزالية الروحانية .

كان التشاغل بالدنيا ، هو الحجاب الذى يجب على الغزالى أن يمزقه . وكان حب الله والتفانى فى عبادته ، هو قطرة النور الأولى فى هذا الفيض ، فتصوف وسلك الطريق وسار على الجادة حتى كان طليعة القوم ودليل القافلة .

كان هذا الحب الإلهى هو إلهامه ودليله ورائده ، فأصبحت رسالته عبادة ومحبة، وقد صبغ الوجود وأفنى ذاته فى جلال تلك المعانى حتى غدا العلم لديه تعبداً ، لأنه يريه الله فى كل شىء ، ولأنه يجعل الطبيعة أمامه محاريب دائمة للصلاة والفكر .

وهكذ الجأ الغزالى إلى الاعتكاف والعزلة فى جوانب المساجد ومناراتها ، يعبد الله ويتأمل فى آياته ، ويفنى حباً وغراماً .

جعل الغزالى الحب الإلهى هو غاية الحياة كما هو سر سعادتها ، انظر إليه إذ يقول فى توضيح السعادة :

« سعادة كل شىء لذته وراحته ، ولذة كل شىء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شىء ما خلق له . فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذة الأذن فى الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ، لأنه مخلوق لها ، وكل ما لا يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها ، ولو ينهى عنها لم يتركها ، ولم يطق عنها صبراً . وكذلك إذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة ، لأن لذة القلب المعرفة . وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر . ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف المليك لكان أعظم فرحاً . وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ، لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم أثر من آثار صنعته ؛ فلا معرفة أعز من معرفته ، ولا لذة أعظم من لذة معرفته ، وليس منظر أحسن من منظر حضرته . وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس ، وهى تبطل بالموت ، ولذة معرفة الله متعلقة بالقلب

فلا تبطل بالموت لأن القلب لا يهلك بالموت ، بل تكون لذته أكثر وضوؤه أكبر ، لأنه خرج من الظلمة إلى النور » .

فالغزالى يقرر فى ثقة يقينية ووضوح وصراحة بأن الحياة الفاضلة السعيدة هى معرفة الله وعبادة الله ومحبة الله ، تلك هى الغاية العليا والهدف الأسمى ، لأن كل لذة سواها فانية ، وكل غاية سواها لاغية .

فإن كان « شوبنهور » لخص فلسفته كلها فى كلمة واحدة هى جماع رسالته ، إذ يقول : « إن الحياة إرادة » . وإذا كان « نيتشه » جعل آيته الذهبية قوله : « الحياة هى القوة » فإن آية الغزالى ورسالته : « الحياة محبة وعبادة » .

وبذلك يلتقى الغزالى بالفيلسوف الرومانى « سنكا » الذى كان يقول : « ولدنا خاضعين لأحكام الله ، فمن أطاع الله كان حراً آمناً سعيداً . ويتفق مع « أرسطو » فى قوله : « الأشرار يطيعون خيفة والصالحون على حب » .

وقد أعد الغزالى نفسه لتلك الرسالة بالتطهر والصفاء والاعتكاف الكامل ، كان يتعبد تعبد العاشقين الوالهين .

ثم غادر محاريبه وخلواته ليزاحم الإنسانية فى موكبها وليرشدها

إلى طريقها . رأى الغزالى الناس يسيرون فى مواكب الحياة لا يدرون لماذا هم سائرون ، ولا يسألون لماذا يسيرون . شاهد القطيع البشرى لا يعرف الراحة ، ولا السعادة ولا السلام ، ولا يدرك نعمة الاستقرار الكبرى . شاهد دنيا يمزقها التعب والبغضاء ، فنادى بمعانى الحياة المقدسة ، وأرشد إلى غاية الوجود العليا . فأذاق المتعبين المجهدين الضالين رحيق الراحة ، ونعيم المحبة ، وسحر السلام .

هل للمعرفة طريق باطنية غير الحواس الخمس .؟

الكشف الباطني يشغل جانباً ضخماً من رسالة الغزالى ، إذ هو فى طليعة رجال الفكر الإسلامى ، بل العالمى الذين آمنوا بإلهامات الروح ، بل وجعلوا من تلك الإلهامات وسائل وغايات للإرشاد والهداية .

وقد اختلف المفكرون قديماً وحديثاً فى طريق المعرفة ، وهل تتأتى عن طريق الحواس الخمس فحسب ؟ أم لها سبل وطرق باطنية إلهامية أخرى ؟

فالماديون منهم لا يرون للمعرفة باباً إلا الحواس الخمس المتصلة بالعالم الخارجى ويقررون أن لا مصدر فوق هذا تهبط منه المعرفة ، غير الخيال والتصور ، وهم شديدو التهكم برجال الكشف الباطنى ومن سلك مسلكهم من أرباب القلوب أو الرياضة العقلية ، ذلك سبيل أصحاب المذاهب المادية من الفلاسفة .

أما الصوفية والروحانيون على اختلاف أديانهم وألوانهم ومذاهبهم فيقررون أن للعلم وسائل باطنية تصل بين النفس الانسانية والعالم الروحانى ، يلمسها كل من صفت نفسه من أدران

المادة وتخلصت من شوائب الحياة فيحصل من هذا الطريق على أسرار الوجود وخفايا الخلود، وحكم تعلو على الحواس الخمس والمعارف التى تدركها هذه الحواس.

والعلم الحديث القائم على الاستقراء والمشاهدة يعترف فى صراحة بأن للمعرفة وسائل أخرى غير الحواس الخمس، وأن هناك إلهامات روحية غامضة لا سبيل إلى معرفة أسرارها أو إنكارها أو التهكم عليها.

فمسأله العقل الباطنى، والتنويم المغناطيسى الذى عجز الماديون عن إنكاره أو تشكيك النفوس فيه، ما هو إلا ضرب من ضروب الأرواح السابحة التى يمكن للأرواح البشرية أن تلتقى بها، وتتحدث إليها، وترشف من نبعها ومعارفها ما شاءت من أسرار وفنون.

وقد دل العلم الحديث على أن المنوم تنويماً مغناطيسياً بعد أن تتعطل حواسه يتقمص شخصية أرقى من شخصيته وتتلبسه روح عاقلة واسعة الإدراك سامية المعارف، تتحدث عن أدق المسائل وأغمض المسالك.

ومن مشاهدات العقل الباطنى ما يلمح فى كثير ممن نفذ إليهم

شعاعه فى ناحية خاصة كالحسابين على البديهة ، وهم طائفة تلق عليهم أغمض المسائل الرياضية وأدقها والتى تحتاج إلى زمن كبير فى التفكير والعمل ، فيجيبون عنها فوراً وهم لايدرون ولا يعرفون كيف ولا متى حصل هذا ؟

وهناك أطفال يوقعون على الموسيقا قطعاً وألحاناً يعجز عنها أئمة هذا الفن وهم لا يعرفون كيف صنع هذا اللحن أو رتب ذاك النغم . !

وقد كتب الشاعر « موسيه » عن نفسه فقال « أنا لا أعمل ولكنى أسمع فأفعل فكأن إنساناً مجهولا يناجينى فى أذنى » . وكان « لامارتين » يقول « لست أنا الذى يفكر ولكن هى أفكارى التى تفكر لى » . وروى الشاعر « رينيه » أنه قد ينام غالباً وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة فى اليوم التالى عند ما يفكر فيها . أما سقراط فقد كان يسمع بأذنيه ما تلقيه إليه الروح .

بل إن هناك مذاهب فلسفية قديمة قامت بأسرها على المناجاة الروحية والاتصال بالله فأفلوطين فى مدرسة الاسكندرية يرى « أن الجذب والفيض هما السعادة التى ليست وراءها سعادة » ومالبرنش

فى القرن السابع عشر يقول باتصال مستمر بين العبد وربه ، فمعرفتنا ليست إلا فيضاً من الله ، وما يبدو منا من عمل خارجى ليس إلا ظروفاً ومناسبات لتحقيق إرادة الله وبهذا يتلاشى المخلوق فى الخالق ، ويندمج الأثر فى المؤثر .

وأرسطو الذى كان واقعياً فى بحثه وطرقه ، ورجل مشاهدة وتجربة فى ملاحظاته واستنباطاته قد انتهى به الأمر إلى أن بنى دراسته النفسية على شىء من الفيض والإلهام .

ومن مذاهب العلم الحديث « مذهب المتأملين » الذين يؤمنون بالتأمل ويفضلونه على القراءات والدراسات . فأصحاب المذاهب الفكرية وقادة الرأى لديهم كانوا من المتأملين ، ولم يكونوا من الذين أفنوا حياتهم فى البحث والدرس .

والصوفية فى الإسلام تحمل لواء الكشف الباطنى ، وقد ازدحمت مكاتب الفكر الإسلامى بتراث ضخم للصوفية التى حوت معارفها ينابيع من العلوم والفنون أثارت جدلا وحواراً ، ولا تزال تثير جدلا وحواراً .

ولا ريب فى أن الصوفية قد وجدت فى الغزالى قائداً بارعاً ومحامياً لبقاً وشارحاً ساحراً يأسر القارىء إلى صفوفه ويكسب

المعارك بفنونه ، فاستطاع أن يجعل منها علماً واضحاً مهذباً ، أو كما قال العلامة ماكدولاند « إن الصوفية بلغت بفضله ونفوذه وتأثيره مكاناً ثابتاً وطيداً فى الإسلام . . »

وتفوق الغزالى فى تاريخ التصوف مرجعه إلى تفوقه العلمى ، فقد درس العلوم الفلسفية والتقليدية والجدلية والمذهبية دراسة لم تتيسر لكاتب صوفى سواء تقدم به تاريخ الزمن أم تأخر .

وبذلك أصبح الغزالى هو كاتب الصوفية الأول . وبفضله وضحت أسرارها ومعانيها ، وتحددت أهدافها ومراميها ، وكما حطم نفوذ الفلسفة فى المشرق بعد سيادة وهيمنة ، أطلق علم التصوف فى السماء يسبح خفاقاً فى قداسة ونور وإجلال .

والغزالى يؤمن بأن معارف الباطن هى طريق الهداية ، لأنها اتصال مباشر بالحقائق الخالدة والأسرار النورانية ، وصلة مستمرة بين العبد والخالق أساسها المحبة المتبادلة والإلهامات المشرقة .

وقد أطلق الصوفيون على المعرفة الروحية لقباً يجعلها أصلا من الأصول ، لا فرعاً من الفروع فأسموها علوم الباطن وأقاموا ثقافتهم وعبادتهم على أساسها .

وعلم الباطن عند الغزالى هو غاية العلوم وقد عرفه بقوله :

« إنه عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور ، أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بإدراك حقائق علم الدنيا وعلم الآخرة . وهذا ممكن فى جوهر الإنسان ، لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا . ولا سبيل لهذا العلم إلا بالرياضة والتعليم ، وهذه هى العلوم التى لا تسطر فى الكتب أو لا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشىء إلا مع أهله ، وهذا هو العلم الخفى الذى أراده صلى الله عليه وسلم بقوله إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله ، فاذا إنطقوا به لم يجهله أهل الاغترار بالله » .

« واعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون وقد قال صلى الله عليه وسلم : (إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وحداً ومطلقاً) وقال على ، وأشار إلى صدره : إن هاهنا علوما جمة لو وجدت لها حملة ، وقال أيضاً : لو أردت أن أفسر الفاتحة بما أعلم لأحتجت إلى ثمانين بعيراً ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى (الذى خلق سبع سموات ومن

الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) لو ذكرت تفسيره لرجمتمونى
وقال أبو هريرة : (حفظت من رسول الله وعاءين ، أما أحدهما
فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم) وقال الرسول
(ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر فى
صدره) . وقال سهل التسترى : للعالم ثلاثة علوم ، علم ظاهر
يبذله ، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله ، وعلم هو بينه و بين
الله لا يظهره لأحد. فان قيل ، إذن الظاهر خلاف الباطن ، وفى
هذا إبطال للشرع ، كان الجواب أن الشرع عبارة عن الظاهر ،
والحقيقة عبارة عن الباطن ، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه
ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفى والجلى واحداً ،
و إنما هو اختلاف العقول والأفهام والظرف والمكان ، وإن
هناك من يدرك الشىء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق
والفروق ، وذلك كما يتمثل للانسان فى عينه شخص فى الظلمة
أو على البعد فيحصل له نوع علم فاذا رآه بالقرب أو بعد زوال
الظلام أدركه إدراكا أوفى . »

الغزالى والتصوف

إن محمداً عشق ربه :

قبيل الوحى المحمدى كان الرسول يتبتل ويتعبد فى غار حراء مطلقاً روحه للتأمل والتفكر فى بدائع الله وآياته الكونية ، صارفاً قلبه عن متاع الحياة وشواغل الوجود ، ليتفرغ بقلبه وعواطفه للمناجاة والعبادة وتلمس المعرفة ، حتى كانت العرب تقول « إن محمداً عشق ربه » .

وبداية الأنبياء هى نهاية ما اصطلح على تسميتهم بالصوفية الذين يقولون إن المجاهدة والمحبة ، والفناء فى معانى المحبة والعبادة تعد الروح للتذوق والتلقى ، وتوصل إلى العلوم والمعارف . فالمعارف فى اعتقادهم كامنة فى الروح البشرى أصيلة فى مادتها لا دخيلة عليها . والتغلب على الجسد ، باعلاء مكانة الروح يمزق تلك الحجب ويرفع الظلمة التى تحول بين الروح والنور .

ويعبر الغزالى عن المعرفة بقوله : « إنها نور يقذف فى القلب » . وقد كان الإمام مالك يقول « ليست المعرفة بكثرة الرواية ، ولكنها

نور يضعه الله تعالى فى القلب » .

وقد أثار التصوف جدلا وحواراً ، ولا يزال يثير جدلا وحواراً فى الفكر الإسلامى ، وأكبر الظن أن هذا الجدل ، أوهذا الحوار سيبقى خالداً ما بقى الفكر .

والذين نقدوا التصوف الإسلامى وجهوا نقدهم الأكبر إلى أهداف ثلاثة .

فالفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية عابوا طريقته إلى المعرفة وأنكروا أن يكون التفرغ والتجرد من متع الحياة والزهد فى شهواتها ونعيمها سبيلا إلى المعرفة ، بل سبيل المعرفة عندهم هو تغليب أرقى أجزاء النفس على الحواس ، وهم يقصدون بذلك قوى العقل وإرادته ، كما وصفوا الانتصار العقلى على الحواس بأنه أرفع مراتب السعادة كما يقول ابن رشد .

وهم بذلك يؤيدون الصوفية أكثر مما ينقدونها أو ينقضونها لأن فى سعيهم إلى تغليب العقل نزوعاً إلى الصوفية وإن اختلف الوضع ، فنادوا بالعقل ، ونادى المتصوفون بالروح .

وعلماء الاجتماع ورجال الأخلاق ، تهكموا بالصوفية وأساليبها وأسرفوا فى التهكم والتجريح لأنها فى نظرهم لا تصلح للحياة العملية

ولا يقوم بها نظام المجتمع ، ولا يمكن أن تتأسس على نظمها الزاهدة ، الأمم .

وتلك شهادة للتصوف لا عليه ، فهى تدل ضمناً على إنهم لا ينشدون مظهراً فى الحياة ولا غلبة فى مضمارها ، ولا يبغون مأرباً ولا يلتمسون مغنما من مغانمها ، وإنما ينشدون طهراً وقربا من الله وفوزاً برضوانه وعبادة للعبادة ، بل أن التصوف الإسلامى جعل العبادة أصلا والمعرفة فرعاً .

والصوفيون لا يقولون إن طريقهم للناس جميعاً ، لأن المثالية لم تكن يوماً من الأيام شرعة مباحة لكل من يخطر بقدمين على الكوكب الأرضى .

وليس في استطاعة الناس جميعاً أن يكونوا ملوكا ، ولا أن يكونوا فلاسفة أو أطباء مثلا أو غيرهم من الطوائف والمذاهب العقلية والعلمية .

وأما الفقهاء وعلماء الكلام ، فقد هاجموا المتصوفة هجوماً عنيفاً ، بل غالوا فى هجومهم حتى رموهم بالمروق والضلال ومفارقة الشريعة وظاهر السنة .

وهنا موقف دقيق ، ففريق من المتصوفة قد غالوا وأفرطوا ،

كجماعة الحلوليين الذين قالوا بوحدة الوجود ، وفريق آخر عبث بظاهر الشرع وأفرط فى السبحات والوثبات والاستغراقات حتى تحلل من الفرائض والآداب .

ولكن التصوف الصادق لا يعترف بهؤلاء ولا هؤلاء ، بل يبرأ منهم ويهاجمهم بأشد من هجوم الفقهاء أنفسهم .

ودستور الصوفية وصفاتهم يرسمه الغزالى ويوضحه بقوله فى كتاب ميزان « العمل » عند ذكره لعلامات السائرين إلى الله فيقول :

« اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامتين له ، العلامة الأولى ، أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على حد توقيفاته ، إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض ، والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا إعراضاً لو ساواه الناس كلهم لخرب العالم .

فإن قلت فهل تنتهى رتبة السالك إلى حد ينحط عنه بعض

وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور ، فاعلم أن هذا عين الغرور وأن المحققين قالوا ، لو رأيت إنساناً يمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان ، وهو الحق »

وإذن فالغزالى يقرر بأن المتصوفين فئة خاصة ، ولا يمكن أن يكون العالم على مثالهم وإلا لخربت الدنيا وتغيرت معالمها وفسد نظامها .

كما أنه يربط التصوف بالشريعة رباطاً لا ينفصم ، فيجعل التمسك بقواعد الشريعة بداية السالك ، فإذا خالف الشريعة ولو سار على الماء وطار فى الهواء فهو شيطان .

تلك هى الصوفية الكاملة التى يصفها الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال بقوله :

« إنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم

يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » .

وماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها . وأول شروطها تطهير القلب عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية فى ذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ، وأول هذه الطريقة المكاشفات حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

التصوف الاسلامى ومراحله :

ينقسم التصوف الإسلامى إلى قسمين ، قسم يتعلق بالتربية وتهذيب الروح ونبل الخلق والتحلى بالفضائل والمحاسن الأدبية ، وهو ما اصطلح على تسميته بعلم المعاملة ، وقسم يتعلق بالرياضة الروحية والعبادة وما فيها من نور وطهر وكشف وفيض .

والقسم الأول هو عماد فلسفة الغزالى الأخلاقية ، بل هو

عماد كتابه الأكبر « الإحياء » الذى خلد فى تاريخ الفكر الإسلامى ، وخلد به الغزالى « كحجة للإسلام » بتوضيح فضائله وأنواره .

وهو مادة دسمة لرواد الأخلاق ، ومادة دسمة لمن يبغى إنسانية نبيلة مهذبة لا تعرف التخاصم والتنابز بالألقاب ، ولا تعرف الفسوق والجدال وسوء الخلق ، وفيه تتجلى وتبرز معانى الحديث الشريف « وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وأما القسم الثانى ، وهو قسم العبادة والفيض ، فأول شروطه كما يقرر الغزالى ، معرفة الكتاب والسنة معرفة عليا ، خلافاً لمن قال إن الفيض يأتى بالطهارة فقط ولو لم تكن هناك معرفة بالكتاب والسنة والفقة ، ويسمى هذا القسم فى اصطلاحاتهم « بالطريق » وقد قسموه إلى أربع مراحل :

المرحلة الأولى مرحلة العمل الظاهر — أى مرحلة العبادة والإعراض عن الدنيا وزخرفها وزينتها ، والزهد فى شهواتها ، والانفراد والعكوف على الذكر والاستغفار .

والمرحلة الثانية ، مرحلة العمل الباطنى ، بتزكية الأخلاق

وتطهير القلب وتصفية الروح ومحاسبة النفس ومراقبتها ، والتجمل بالأخلاق النبيلة والصفات الزكية .

والمرحلة الثالثة ، مرحلة الرياضة والمجاهدة التى يقول فيها الرسول « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وبتلك المجاهدة يقوى سلطان الروح وتتحرر النفس من الأدران الأرضية ، فتسمو وتصفو حتى تنطبع فيها حقائق العالم وأسراره وينسكب فى القلب نور ينكشف به جمال العالم وجلاله ودقائقه وأسراره ، فيرق الحس ويتنبه الشعور ويستيقظ الإحساس ، فتكون حركة حياة فى المشاعر عامة وتشعر تلك المشاعر بلذة عليا وعلوم نورانية تقوى فى النفس حتى تصير صفة لازمة ، ويتوالى الكشف للنفس وتزاح عنها الحجب شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الأنوار العليا فى عرفهم .

أما المرحلة الرابعة فهى مرحلة الفناء الكامل بوصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق وانكشاف ووضوح العوالم الخفية والأسرار الربانية وتوالى الأنوار واللذة الروحانية .

وتلك المرحلة هى مرحلة الخطر ؛ ومن أجلها نشبت المعارك

بين الفقهاء والصوفية ، ومنها نشأ التيه لكثير من الصوفية لأن من تزل قدمه هنا ضاع إلى الأبد

وتلك المرحلة لا تكتب ولا توصف لأنها خارجة عن نطاق التصور العقلى ، والغزالى وهو علم الصوفية وكاتبها الأكبر لم يتعرض لها ، ولم يشغل قلمه بها ، وإن كان لم ينكرها بل تركها لأصحابها وأربابها .

ولكنه جال وأفصح فى المراحل للثلاث السابقة ونثرها فى كتبه نثراً أشبه بالنور والعطر واستمد منها روعة أسلوبه ، وروعة تهذيباته ، وروعة مبادئه التى جعلت من الحياة محراباً أعظم لعبادة الله ودعوة عباده إلى الهدى والرشاد .

وقد تخصص الغزالى لآداب التصوف تخصصاً جعله نسيج وحده بين رجال الفكر الإسلامى فقد مزج الشريعة بالتصوف ، كما مزج العبادات بروح من التصوف اطلق فيها النور والروح إطلاقاً يبعث فى القلب نشوة الإيمان ، ورعشة الخوف وفرحة الحس المطمئن إلى واجبه المقدس .

ودارس الأخلاق عند الغزالى ، لابد وأن يدرس التصوف ،

وأن يتذوق التصوف ، ثم يدرس أخلاقيات الغزالى فيتذوق نبل رسالته الاخلاقية وجلال شأنها .

وان كان رجال التربية وأساتذة الفكر المثاليين يفكرون اليوم فى إيجاد طبقة من الإنسانية ممتازة كاملة الرجولة قوية الحيوية سامية الخلق والفكر متلائمة التناسق ممن أطلقوا عليها اسم (سوبرمان) أى الرجل الكامل أو الخلق الكامل ، فقد وضع الغزالى من قرون الصورة الحقيقية التامة لهذا النوع الممتاز من البشرية السعيدة الطاهرة .

فإن المبادىء الإخلاقية النبيلة التى وضعها الغزالى وشرطها للمؤمن لجديرة بايجاد مجتمع إنسانى ملائكى فاضل سليم من الضغن والتنازع بعيد عن الفحش والرزيلة .

وأن النظم التى سنها الغزالى ووضعها للمجتمعات ، وطرق اتصالها وتعاملها وعوامل اتحادها ومحبتها ، لخليقة بانشاء دولة أو عصبة من الأمم عالمية متحابة متعاونة متفانية فى غاية نبيلة واحدة تهدف نحو وجهة عليا يرفرف عليها علم المحبة ، ويوحدها قانون الأخوة ويسعدها السلام الدائم للروح والقلب والأحاسيس .

ورسالة الغزالى الاخلاقية ، هى تطهير الجوارح تطهيراً كاملاً

عما يلوثها ، وتزكية القلب حتى عن همسات الغل والحسد وأمانى التفوق والغلبة .

هى الطهارة التامة الشاملة لاحاسيس الروح ونداءات البدن ووثبات العقل ، فهو يرى أن الإنسان خلق للفضيلة ، وأن السعادة والفضيلة صنوان ، وأن الإنسان الفاضل هو الإنسان السعيد ، وبذلك حل مشكلة الإنسان والأخلاق والسعادة حلا فاصلا كاملا .

رسالة الغزالى فى الأخلاق ، هى ربط السعادة بالفضيلة ، وبذلك تستريح النفس الإنسانية ، ويستريح المجتمع الإنسانى ، وتستريح الأمم البشرية ، لأن أهدافها ستتخذ بالفضيلة ، ولأن الفضيلة ستكون طريقها إلى السعادة .

الصراع بين الغزالى والفلاسفة

إن الصراع الذى أثاره الغزالى وحمل لواءه ضد الفلسفة والفلاسفة ليحتل من الثقافة الاسلامية وتاريخ الفكر العام جانباً خطيراً ، فقد انتظم فى الإهتمام به رجال الفكر فى مختلف العصور والأزمان على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم .

فقد كان للفلسفة فى الشرق سيادة وجلال ، بل لقد كادت الفلسفة أن تحل مكان الدين ، فاستحوذت على الذهن والتفكير واتسعت التصورات ، وانتشرت التأملات الفلسفية وجرى الناس وراء النظريات والجدل جريا أتعبهم وأتعب معتقداتهم وأتعب الحياة معهم .

ولا شك فى أن علماء الكلام الإسلاميين قد استفادوا من الفلسفة . فالإمام الأشعرى وهو ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة أحدثوا أكبر انقلاب فكرى فى تاريخ الإسلام قد استعان بكثير من النظريات العلمية الفلسفية لتدعيم علم الكلام وتقوية حججه وطرائق بحثه .

كما أثرت الفلسفة فى أدلة الفقة وطرائق بحثه ، وأثرت أكثر

من هذا فى رجال العقل الإسلامى. فقد بذل الفلاسفة الإسلاميون كثيراً من الجهود فى سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين فابتدعوا مذهباً وسطاً فى علوم ما وراء الطبيعية ، وابتكروا نظريات تتأرجح هنا وهناك للمصالحة والتوفيق بين فلسفة الإغريق ونظم الإسلام .

ورغم هذا فقد رهبها رجل الفقه ، كما رهبها رجل الكلام ، فحاربوها وجادلوها وابتدعوا لحربها علوم التوحيد .

وجاء الغزالى وطبول الحرب تدوى باسم الدين ، وحماية الجماهير من لوثة الوثنية والتضليل والتشكيك العقلى .

جاء والنزاع بين الفلسفة والدين هو موضوع الساعة ، كما هو موضوع الساعة أبداً فى كل العصور والدهور فمشكلة العقل والدين مشكلة خالدة ، ما دام هناك فكر يسبح ، ووحى يتبع .

وكان لابد للغزالى من خوض المعركة ، فقد اجتمعت فى يديه أسلحة لم تجتمع لغيره ولقلمه جولات يترقبها جيله ويرمقها بالإجلال والإكبار ، وهو رجل قتال وكفاح ، يلبى الصيحة ويحمى حماه .

أرسل الغزالى صيحة لا تعرف المجاملة ولا اللين ، ففض فى

صراحة وعنف النزاع بين العقل والعاطفة ، والوحى والفلسفة

وأحدثت تلك الصيحة دوياً ، فهى صيحة جديدة النغم ساحرة اللحن قوية اليقين فقد كان الغزالى هو المفكر الأول والوحيد الذى لم يكتف مثل علماء الكلام باقتباس عدة مباحث متفرقة للفلاسفة ثم نقضها . بل قام لهدم البناء كله . ذلك البناء الذى أنشأه الأغريق وهذبه الفلاسفة المسلمون .

ولم يكن الغزالى هادماً فحسب ، بل أقام من أنقاض البناء الفلسفى الذى هدمه على رءوس أصحابه صروحاً من الفلسفة الأخلاقية الدينية لا يزال يعمرها المسلمون إلى اليوم .

والغزالى لم ينكر الجانب العقلى والرياضى من الفلسفة ، بل أعترف بهما وتركهما للموازين العقلية وإنما حطم جانب ما وراء الطبيعة وحطم معه الفلاسفة بتهم المروق والزندقة .

والغزالى بعد ذلك كما يقول العلامة ماكدولاند ، أول من أدنى الفلسفة وقرب بحوثها الدينية أو الإلهيات من متناول الذهن العادى وتعاطى الناس عامة لها ، وكانت من قبله محفوفة بالأسرار مكتنفة بالغموض والرهبة ، كأنها علم لاهوتى ، لا يدركه غير أصحابه والراسخين فيه لما كان

لاصطلاحاتها من الغرابة على الأذهان ، حتى لتقتضى معرفتها الدرس المجهد ، والاستظهار الشاق ، وكان من الصعب تفهمها ودراستها ، فقد انتقلت النظريات والمذاهب والأفكار اليونانية بأكثر مصطلحاتها وتعبيراتها إلى السريانية أولا ثم إلى العربية ، وأوجب هذا الانتقال تصحيفا وتحريفا عند التعريب ، وكان لا بد من طول دراسة وتقص متواصل ، قبل معرفة مصطلحات الجدل والإلمام بعلم المناظرة

فلما جاء الغزالى مزق الحجب وأطلق النور فى الظلمات ، فإن كتابه تهافت الفلاسفة لم يكتب لطلاب الفلسفة وإنما كتب للجماهير كافة ، وقربت مناهله وموارده لسائر الوراد والقاصدين وهذا ما أغضب ابن رشد فاتهم الغزالى بانه أباح العلم للعامة وأفقده ارستقراطيته .

والحق أن الغزالى كان له فضل إنزال الفلسفة من عليائها فقد جعل أسرارها علماً واضحاً لكل قارىء ، وتلك قوة لم تعرف فى عالم الفكر إلا للغزالى ، وقد ألف كتابه «مقاصد الفلاسفة» لهذا الغرض وأوضح غايته فى مقدمته بقوله

« أما بعد فانى التمست كلاما شافياً فى الكشف عن تهافت

الفلاسفة وتناقض آرائهم ومكامن تلبيسهم وأغوائهم ولا مطمع فى إسعافك إلا بعد تعريفك مذاهبهم ، وأعلامك معتقدهم فان الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال بل رمى فى العماية والضلال ، فرأيت أن أقدم على بيان تهافتهم كلاما وجيزاً مشتملا على حكاية مقاصدهم فى علومهم المنطقية والإلهية من غير تميز بين الحق والباطل ، بل لا أقصد إلا تفهم غاية كلامهم من غير تطويل » .

وحينما فرغ الغزالى من تلك الرسالة ، عمد إلى أخرى أشد صعوبة وأكثر التواء ، وذلك هو تصديه لكل هؤلاء والتمييز بين حقهم وباطلهم .

درس الغزالى المذاهب الفلسفية كافة ، ثم لخصها وركزها فى عشرين مسألة رئيسية استطاع أن يزيفها فى قوة وتفوق تزييفاً جر عليه عداء الفلاسفة عداء ملتهباً قاسياً حتى أن ابن رشد كان يلقبه « بالجاهل الشرير » .

ولكنه من الناحية الأخرى رفع له مكاناً فى الشرق ، وخاصة بين الدينيين لم يستطع باحث أن يزاحمه فيه رغم توالى السنين والقرون .

ولا جدال فى أن الغزالى قد نجح فى حملته نجاحاً باهراً لمكانته العلمية ولسلطانه الواسع على النفوس والقلوب ، نجاحاً نلمس أثره قوياً واضحاً فى الشرق ، إذ أصبح اسم الفلسفة فيه حليف الزندقة والإلحاد .

ولقد أنتجت تلك الحركة ثماراً طيبة لأنها خففت من غلواء المذاهب الفلسفية وأبعدت فتنتها عن كثير من العقول ، إلا أنها كانت كما يقول الغزالى فى موازينه العلمية : « إن لكل شىء وجهين وجه خير ووجه شر » لأنها أنتجت من الناحية الأخرى فكرة متطرفة مسرفة فى التطرف ترمى إلى النفور من الفلسفة طالحها وصالحها بلا تمييز أو تفكير .

وبلغ من الغلو فى تلك الناحية أن حرم كثير من علماء الدين البحوث العقلية ، بل اتخذ هذا التحريم حجة فى المناقشات ودحض البراهين ، حتى أصبح شعاراً للجامدين من الفقهاء رمى المفكرين بالزندقة والإلحاد .

والغزالى لم يقصد هذا ولم يرم إليه ، وإنما جرح من الفلسفة كل ما يتعارض مع أصول الدين وقواعده ، وأما ما عدا ذلك

فقد دافع عنه بحرارة وغذاه وأوضحه ، ونشره على الخافقين فى بحوثه ودراساته .

يقول الغزالى فى مقدمة كتابه «تهافت الفلاسفة» ماخلاصته :

« إن الفلاسفة من عهد أرسطو إلى عهدنا هذا قد بنوا مذاهبهم فى الإلـهيات على ظن وتخمين ، من غير تحقيق ويقين ، ويستدلون على صدق علومهم الإلـهية بظهور العلوم الحسابية والمنطقية ، ويستدرجون بهذا ضعفاء العقول . ولو كانت علومهم الإلـهية متقنة البراهين نقيـة عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها ، كما لم يختلفوا فى الحسابية والمنطقية .

وبهذا المنطق القوى الواضح السائغ ناقش الغزالى الفلاسفة فحطم ونقض جميع ما دبجت أقلامهم فى الإلـهيات وعلوم ما وراء الطبيعة .

الغزالى ينشد الحق ولا يتقيد بالمذاهب

بعد أن طوف الغزالى فى آفاق العلوم التقليدية والعقلية والمذهبية ، وبعد أن صقل روحه بالمجاهدات والكشف الباطنى ، استن لنفسه نهجاً مستقلا فهو طالب حق وحكمة ، شعاره : « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق تعرف أهله » وبهذا ابتدع الغزالى مذهباً فريداً بين مذاهب الفكر الإسلامى .

فهو لا يتقيد ولا يقيد نفسه بالانتساب إلى فرقة ما ، أو مذهب خاص ، أو يربط تفكيره إلى مركبة جماعة من جماعات العلم يفكر بتفكيرهم فيصوب مايصوبون ، ويخطىء ما يخطئون .

بل هو ينشد الحق والحق وحده أينما وجد ، وأى لسان به نطق . فيأخذ من آراء المتكلمين ما يؤمن به ، ومن آراء الفقهاء ما يعتقده ، بلا عصبية أو جمود . فهو يبيح لنفسه الاجتهاد ، بل يبيح لكل إنسان الاجتهاد ليكون صاحب مذهب ورأى لا عبداً من عبيد التقليد والمذاهب .

وقد وضح الغزالى مذهبه الفكرى بقوله فى كتابه (ميزان العمل) :

« لعلك تقول إن كلامك فى هذا الكتاب ، انقسم إلى ما يطابق مذهب الصوفية ، وإلى ما يطابق مذهب الأشعرية وبعض المتكلمين ، ولا يفهم الكلام إلا على مذهب واحد . فما الحق من هذه المذاهب ؟ فإن كان الكل حقاً ، فكيف يتصور هذا ؟ وإن كان بعضه حقا فما ذاك الحق ؟

ثم يجيب عن هذا بقوله :

« اطرح المذاهب ، فليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه . فاطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن فى صورة أعمى مقلد ، وإنما خذ الحق أينما وجدته ، وفى أى ناحيـة كان ، واطلب الحق بالنظر لا بالتقليـد — فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أينما وجدها — :

وتلك رحابة فكرية من الغزالى لم تعرف لغيره من رجال الدين ، فهو ينشـد الحق لا المذهب ، ويعرف الحق أولا ثم الرجال ، لا الرجال أولا ثم الحق .

وهو يرى أن العصبية لمذهب ما تحرم الإنسان من جنى ثمرات طيبة فى غيره . فليس مذهب ما مهما عاديناه وخاصمناه يخلو من فكرة رائعة ، ونظرة صائبة ولو فى جانب واحد .

ومذهبنا الذى نعتنقه مهما أحببناه وقدسناه ، لا يخلو من ضعف ولو فى فكرة واحدة من طرائق بحثه وعرضه ، فلم نقيد أنفسنا ، والعلم كالفكر يجب أن نحرره من العصبية ، فننشده فى كل أفق ونطلبه فى كل نبع ؟

وهى فلسفة غزالية مبتكرة فى التفكير الإسلامى . بل هى فلسفة غدت اليوم من سمات العلماء المجددين .

جهـــاد الغزالى

بعد أن تطهر الغزالى فى عزلته ، و بعد أن أعد نفسه إعداداً عقلياً وروحياً لرسالته الإصلاحية ، و بعد أن آمن بأن لديه مسببات النجاة لهؤلاء الذين يسيرون فى الحياة بلا غرض ولا غاية ولا هدف نبيل .

يسيرون تعلو وجوههم عـلامات التعب والأسى ، وتزخر قلوبهم بشهوات النفس والهـوى وتموج عقولهـم بالترهـات والأكاذيب والضلال ، فارق اعتكافه وعزلته ليحمل راية الجهاد راية الأنبياء والمصلحين والقادة .

فهو يعتقد أن الاعتكاف والعزلة والنجـاة بالنفس أوهى درجات اليقين والإيمان ، أما الجهاد فى سبيل الخير والإصلاح وتهذيب الإنسانية وهديها فهو رسالة الأنبياء ، ورسالة العلماء ، الذين هم ورثة الأنبياء والحفظة على تشريعهم ، فان كان الورع والزهد عبادة فالجهاد لإصلاح حالة المجتمع هو أسمى حالة التقوى بل هو روح العبادة ونورها وعلامة اليقين والإجلال لها .

فارق الغزالى عزلته ليواجه الحياة برسالته ، وهو يعلم أن

دون تلك الرسالة أهوال وعقبات ولكن الإيمان لا يروعه هول، ولا يفل من عزمه مشقة الطريق ووعورة المسالك.

نظر الغزالى إلى المجتمع فى عصره فرآه ضعيف الإيمان، قليل العمل للآخرة، فراح يتقصى الأسباب حتى إذا أحاط بها حصرها فى أربعة أمور رئيسية :

(١) الخوض فى الفلسفة (٢) الخوض فى طريق التصوف

(٣) الانتساب إلى دعوى العلم (٤) سوء أخلاق العلماء

وقد أوضح الغزالى تلك الأمور بقوله :

« أخذت أسأل المقصر، مالك تقصر؟ إن كنت مؤمناً بالآخرة فلماذا لا تستعد لها؟ وإن كنت لا تؤمن بالآخرة وإنما لا تستطيع المجاهرة فأنت منافق ضائع الرأى ! فكانت الأجوبة كما يأتى.

فمن قائل يقول — هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك. وفلان من المشاهير بين الفضلاء والعلماء لا يصلى. وفلان يشرب الخمر، وفلان يأكل أموال الأوقاف، وأموال اليتامى، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهود وهؤلاء قد ضلوا بالقدوة السيئة.

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغا ترقى به عن الحاجة إلى العبادة .

وثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة . ويزعم أن مشايخه قد فعلوا وقد أفتوا ، وهؤلاء ضلوا عن التصوف .

ورابع اشتغل بالعلوم والمذاهب ، فيقول الحق مشكل ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ! ؟

وخامس يقول : أنا أعظم من أن أقلد ، فقد قرأت الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة وقد بلغت مرتبة من الحكمة ، والمقصود من العبادة ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال فى الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل تحت نير التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة .

حتى أن بعضهم كان يشرب الخمر ويقول : إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العدواة والبغضاء وأنا بحكمتى متحرز عن ذلك وإنى أقصد بها شحذ خاطرى ، حتى أن ابن سينا كتب « أنه عاهد الله أن لا يفعل كذا وكذا ولا يشرب الخمر تلهياً بل تداوياً وتشافياً » .

فلما رأيت ذلك اعتزمت كشف أسرارهم وتحطيم تلك

الأصنام من العلماء والفلاسفة لكثرة خوضى فى علومهم وطرقهم أعنى الصوفية والفلاسفة ودعاة الفقه والعلم» .

وإذن ففساد القادة ، وضلال الاتباع ، والجهل بالشريعة ، كانت دوافع الغزالى فى تركه العزلة ، وإعلانه الجهاد ، وقيامه بالدعوة إلى تجديد الروح الإسلامى ، والآداب الإسلامية والأخلاق النبوية .

وفى سبيل تطهير المجتمع الإسلامى رفع الغزالى لواء رسالته الأخلاقية وهى من أجلّ جوانب رسالته العامة .

ولكى ندرك عظمة الغزالى فى جهاده يجب أن نتصور فساد عصره وبلبلة الأفكار فيه ، وفساد العلماء والفقهاء المتصدرين للقيادة والإرشاد ، هؤلاء الفقهاء الذين يصفهم الغزالى فيقول :

« ولو سئل فقيه عن معنى الإخلاص أو التوكل أو وجه الاحتراز من الرياء ، لتوقف فيه ، ولو سألته عن اللعان والظهار لسرد عليك مجلدات من التفريقات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شىء فيها ؟ وهو لا يزال يتعب ليلاً ونهاراً فى حفظها ودرسها ويغفل عن روح الإسلام ومعانيه .

وإذا روجع فيه ، قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض

كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه .

ولو كان غرضه الحق فى تعلم فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين . بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفاية ، فكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة ، ثم لاترى أحداً يشتغل به ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء .

فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به ، هل لهذا سبب ؟ إلا أن الطب ليس متيسرا به الوصول إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة أموال اليتامى ، وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء .

تلك أخلاق العلماء والفقهاء فى عصره وهذا مبلغها من الفساد وفهم الشريعة والأخلاق ، وإذا فسد العلماء والفقهاء فسدت الجماهير وفسدت الصورة النبيلة التى للدين .

وقد استطاع الغزالى أن يظفر بنصر كامل ، بل استطاع أن يدفع قافلة الحياة فى عصره إلى وجهة جديدة ، وأن يحمل الناس

على نهج جديد لا تزال آثاره تسود عصرنا وتهيمن على توجيهاته رغم القرون والأحقاب .

يقول العلامة ما كدولاند « إن الغزالى عاد بالناس من الجرى فى أثر النظريات والجدل والفقه والمنطق والعلوم الدينية واختلاف المذاهب والطرق إلى الحياة الحقيقية والاتصال الملابس للدين والسنة والكتاب بل إلى روح الدين ذاته وجوهره ولبابه دون القشور والسطوح والمسائل النظرية الكثيرة العقد ، وأن ما وقع فى أوربا عند تحطيم نير الفلسفة المذهبية فى القرون الوسطى ، بل أن ما هو اليوم بالذات واقع بسبيل هذا ونحوه قد وقع بالفعل فى الإسلام لعهد إمامه الغزالى وزعامته الفكرية وقيامه بدعوته وأدائه رسالته .

وقد كان فى وسعه أن يكون فقيهاً مع الفقهاء ومذهبياً مع المتذهبين ، ولكن طريقته فى الحق وفضله ينحصران فى توفره على إبراز الكتاب والسنة وجعلهما أساساً علمياً لا تحول عنه ولا تبديل له ؛ وقد ظهر دائماً أن الانطلاق من البحث النظرى عن الحقائق والجدل فيها والحوار المقيم عليها إلى الأخذ بهذه الحقائق الأساسية فى غير جدل عقيم وبحث غير مجد هو فى الواقع

الفرار من النزعة المذهبية والتلخص من نيرها المستبد الأليم .

وقد حاول الإمام أبو الحسن الأشعرى ذلك بالذات قبل الغزالى بمائتى سنة كما حاوله ابن رشد كذلك بعد مائة سنة من رحيله ، وكما فعل فى عهدنا هذا « اسبرنجر » إذ أراد أن يدخل حياة جديدة على الإسلام فى الهند فلم يوفق وعاد فاشلا ، ونحسبه لم ينجح لأن المهمة كانت شاقة عصيبة عليه ، أو لأنه لم يكن له من الإيمان والشخصية ما كان للغزالى من ذلك كله » .

ولا جدال فى أن الغزالى كما يقول « ما كدولاند » قد انتصر بإيمانه وشخصيته ، وما كان لرجل أن ينتصر فى تلك المعركة إلا بإيمان لم يهن ، بل يلهم وينتصر ، وشخصية تحمل جيلها على الإجلال والايمان .

دستور الغزالى الخلق

الغزالى أكبر كاتب خلق عرفه الفكر الإسلامى ، بل لعله أكبر كتاب الأخلاق الدينية فى العالم .

فقد جعل الأخلاق رسالته العليا ، وربط الأخلاق بالدين ، رباطاً لا انفصام له ، بل جعل الأخلاق هى روح الدين ، والغاية منه ، وأضفى على العبادات ، أصولها وفروعها ، ألواناً خلقية تحببها إلى النفوس ، وتعطرها فى القلوب ، وتملأ الحس خشوعاً وإيماناً وجلالاً .

فللصلاة آدابها التى هى الروح والهدف ، وللصيام برنامجه الخلق الذى لا يستقيم بدونه ، وللنفس والقلب ولكل جارحة من الجوارح ، وخاطرة من الخواطر صفة خلقية ، ودعوة إلى تطهير وتزكية ، حتى همسات القلب ، وسوانح الفكر ، يقيدها الغزالى وينظمها ويضع لها دستور الكمال .

وتساير أخلاقيات الغزالى الإنسان فى مأكله ومشربه ومنامه وحله وترحاله ، وتلازمه فى تصرفاته مع الأصدقاء والأهل والزوج والولد والمجتمع والعالم .

فالأخلاق عند الغزالى شريعة شاملة للحياة بأسرها، شريعة لها مثلها العليا ، وأهدافها السامية المرتفعة إلى السماء ، ثم هى أيضاً تعيش معنا على الأرض متصلة اتصالاً وثيقاً بكل حركة من حركات الروح والقلب والعقل والبدن .

وقد عاب الماديون على الغزالى أن فلسفته الخلقية فلسفة سلبية لا تلائم الحياة العملية ولا تصلح فى معترك الحياة وزحام الوجود، ولا تُعِد صاحبها للكفاح والنضال والغلبة والسيادة .

عاب الماديون على الغزالى هذا ، وكأنهم يريدون أن يسمعوا من الأخلاق رنين السيوف لا همسات السلام ، وصيحات القتال لا نداء الرحمة والوئام .

عابوا على الغزالى فلسفته الأخلاقية لأنها تريد أن تبتدع مجتمعاً فاضلاً معطراً بصفاء الروح وطهارة القلب والحس والجوارح، طهارة لا تعرف الغل والحسد ، ولا تقر الغش والتزييف ولا ترضى التواثب والتلاحم وتنكر الصراع والنزال .

وعابوا على الغزالى فيما عابوا أنه مزج الدين بالأخلاق والروحانيات بالفضائل ، ولم يمزجها بعلم النفس ، ولم يقم صروحها

على نداءات الجنس وضرورات الشهوة ودوافع المجد والنصر فى الروح البشرية .

عابوا على الغزالى وأسرفوا ، ثم عابوا وأسرفوا ، فأخطأوا وأسرفوا فى الخطأ لأن أخلاقيات الغزالى لا توزن بتلك الموازين الجامدة المتشائمة التى صور أصحابها الناس بألوان من الشهوات وألوان من الغايات وألوان من النزوات لا يستقيم معها خلق ولا يسود فيها دين .

أما الميزان الصادق الذى يقام فى ساحة العدالة الفكرية عند دراسة تلك الأخلاق فهو ميزان الآداب السماوية ، وميزان المثالية الخلقية .

فالغزالى حينما وضع دستوره الأخلاقى كان يمسك بيمناه ميزان عدل وهدى ، الأخلاق عنده هى كل ما يرفع النفس ويسمو بالحياة إلى مناطق النور والصفاء ، والرذائل لديه هى كل ما يفسد الجسم والنفس والعقل ويبعد الروح عن مناطق النور والصفاء .

فإذا دعا الغزالى إلى عدم التكالب على الرزق والتفانى فى الحرص على متاع الحياة وذهاب النفس حسرات على مباهجها ،

فذلك لأنه يحتقر المال والجاه والسيادة إذا كان فى الفوز بها صفة من تلك الصفات التى تمس الخلق القويم .

وإذا نادى بكف النفس والعقل واليد عن مطامع الحياة ، وكف النفس والعقل واليد عن المتاع الزائل والمجد الزائف ، والصراع الباطل ، فليس لنا أن نقول للغزالى إن هذا الزهد فى الحياة يقتل بواعث المجد فى النفوس ، ويخمد شعلة التوثب والفوز فى القلوب .

فالغزالى لم يتخيل الدنيا ملحمة بين كباش تتناطح ، وإنما تصورها حناناً ورحمة وطاعة وعبادة ، فالمجد عنده مجد النفوس المطمئنة المتحابة ، والنصر لديه هو الفوز على النزوات والشهوات والتطهر من الرذائل الهابطة إلى الظلمات .

نظر الغزالى إلي الحياة الدنيا باعتبارها وسيلة لا غاية ، وعبادة لله لا للدرهم والدينار ، والتغالب والتفاخر والتنابذ بالألقاب .

كتب الغزالى أخلاقياته للمجتمع الإسلامى الفاضل الذى يؤمن به ويدعو إليه ، ومن ثم ابتدع له أخلاقاً كاملة على أسس دينية وطاعات روحية وقلبية .

فليس لنا أن نقول له إنك أهملت ما كشف العلم الحديث

من علوم وفنون ، فالعلم الحديث يقرر أن الجنس هو المحرك الأول للوجود والملون الأول للأخلاق والبواعث القلبية والنفسية ، وأنت تقسو على الجنس وتغالى فى قمعه وتهذيبه وتغالى فى عدم الاعتراف بسلطانه وجبروته .

وليس لنا أن نعترض عليه بأن الحياة هى القوة ، والتوثب للمجد ، والتطاول والتفاخر بالمال والجاه ، وما إلى المال والجاه من متاع وسلطان .

وليس لنا أن نقلل من شأن أخلاقيات الغزالى لأن روح الزهد والقناعة تترقرق واضحة بين أسطرها ، وعطر المحبة والعبادة يتضوع من شمائلها وأعطافها .

الأخلاق عند الغزالى نشيد لم يترك وجهة من وجهات الحياة إلا ألقى عليها النور والرحمة والإيمان والسلام .

الأخلاق لديه صفات مثالية ، أو إن شئت فهى محاولة صادقة لإنشاء إنسانية فاضلة وخلق مجتمع بشرى سعيد .

أسلوبه وطريقته :

يقول العلامة « ما كدولاند » « إن الغزالى فى وعظه وأخلاقياته وتعاليمه النفسية عاد فأدخل عنصر الخوف ، فقد جعل فى كتابه

المنقذ من الضلال وغيره من الكتب يؤكد وجوب إلقاء الرعب والوجل فى النفوس العامة ، منادياً بأن الأمر لم يعد يستوجب الملاينة والمصانعة والرفق والتأميل والتفاؤل ؛ بل لقد وجب أن تبين للناس حقيقة الجحيم وعذابها الأليم ، فقد أحسها هو فى نفسه وشعر بها فى أعماقه ، وقد رأيناه كيف تجرد من المتع وأخضع النفس للزهد والنسك والحرمان ، وجعل الخوف من النار الباعث الأكبر على هدايته واجتنابه الضلال والهوى » .

كانت طريقة الغزالى التى ترمى إلى التهويل ؛ وإلقاء الرعب فى القلوب ملائمة لعصره الذى لم يعد الأمر فيه كما يقول ما كدولاند يستوجب المصانعة والملاينة ، ذلك العصر الذى أسرف على نفسه فى الشكوك والأوهام ، وأسرف على نفسه فى الترف والملاذ ، وأسرف على نفسه فى التنابذ والخصام ، فقاوم الغزالى تلك الروح المسرفة العابثة بأسلوب ملتهب حار يبرق فيه التهديد والوعيد ، وتتمثل فيه أهوال العقاب والثواب .

وأسلوب الغزالى فوق عنفه وقسوته يخفق على القرطاس نابضاً بالحياة ، ويتسلل إلى القلوب مناجياً الضمائر والأحاسيس ، حتى ليشعر قارئ الغزالي بروح يتكلم فى أعماقه ، ويحس

شخصية الغزالى تناجيه وتلازمه وتسيطر على أفكاره واتجاهاته .

والغزالى كاتب مصور بارع الخيال يمتلك فى يسر وبساطة حاسة الخيال الفنى ، فهو فنان فى أخيلته ، فنان فى تصويره فنان فى أمثلته وتشبيهاته .

انظر إليه كيف يشبه من يحسب أن المحسن أحسن باختياره ، إنه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على بياض القرطاس يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك إلى القلم إذ حدقتها الصغيرة الضعيفة لا تمتد إلى الأصبع ، ومنها إلى اليد ، ومنها إلى القدرة المحركة لليد ، ومنها إلي الإرادة ، ومنها إلى المعرفة ، ومنها إلي صاحب القلم والقدرة والإرادة .

فأسلوب الغزالى فى أخلاقياته يستمد قوة عرضه وقوة تأثيره من حاسة الخيال الفنى ، فإذا تكلم عن فضيلة من الفضائل عمد إلى ذكر ما ورد فى حمدها من الآيات فى اختيار بديع بارع ، ثم يسرد ما جاء عنها من الأحاديث ، ثم يعقب بالآثار ، وينطلق بعد ذلك مؤيداً قوله بالقصص والأمثال التى تأسر قلب القارئ ، وتصور فى نفسه محبة تلك الفضيلة ومالها من خطورة وجلال .

فإذا تكلم عن رذيلة ، من الرذائل ، طرق هذا النهج أيضاً مضيفاً إليه إلهاب الكرامة النفسية فى القلوب ، وتنفير تلك الكرامة من أن تتدنس برذائل حيوانية حقيرة .

أما ميزة أخلاقيات الغزالى الكبرى فهى صلاحيتها الخالدة لكل جيل وعصر ، وصلاحيتها الخالدة لكل قارئ على اختلاف الثقافات والبيئات أسلوباً ومعنى .

تربية الخلق أو العادة :

وللعادات عند الغزالى تأثير كبير فى تكوين الخلق ، حتى إن الخلق بحكم العادة يصبح عبارة، عن هيئة فى النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ، من غير حاجة إلى التفكير والروية ، فالخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، ولهذا السبب نرى الغزالى ، يتشدد فى الأمور الطفيفة المتعلقة بالأخلاق ، لأنه يؤمن بأنها ستكون مقدمة لما هو أشنع ، وبأنها ستصبح صورة لازمة .

وهو يقرر ، أن النفس إذا كانت تستلذ الباطل وتميل إليه بالعادة، فكيف لا تستلذ الحق، لو ردت إليه والتزمت المواظبة عليه

كما يقرر أن النفوس بفطرتها خيرة تميل إلى الخير ، أما هذا الميل إلى الأمور الخسيسة فهو أمر خارج عن الطبع ، يضاهى الميل إلى أكل الطين وقد شاهد الغزالى قوماً يستطيبونه بحكم تغلب العادة والاستمرار عليها .

إن النفوس خلقت بفطرتها تهوى الحكمة وحب الله ومعرفته وعبادته، وهو أمر أصيل لادخيل لأنه وحى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وميل غريزى كالميل إلى الطعام والشراب ، وهو ضرورى للقلب لأنه أمر ربانى .

أما الميل إلى مقتضيات الشهوة فغريب عن ذات الإنسان وعارض على طبعه ، وإنما أصبح مألوفاً بالعادة السيئة ، ولهذا أصبح الطفل أمانة فى عنق ذويه، فليتقوا الله فى أمانته وليحافظوا على تربيته ، وليتجهوا به الوجهة الصالحة التى خلق لها وليجنبوه مهاوى الضلال وفاسد العقائد والعادات .

ومسألة الفطرة البشرية ، وهل الشر أصيل فى النفوس أو دخيل عليها مسألة تطاحنت فيها العقول واختلفت ولم تر فيصلاً تطمئن إليه القلوب فى هذا الاختلاف .

ولكن الغزالى يلبس تلك الفكرة ثوب الدين ، فيرى أن

الميل إلى الحكمة وحب الله وعبادته أمر ربانى فى القلوب أصيل لادخيل ، وإنما فاسد الأخلاق هو الذى يميل بالنفس إلى الهوى ومجانبة الحق وارتكاب الشر.

والغزالى بذلك يعلى من شأن الروح البشرى ويعلى من شأن الفطرة الأولى ، ويعلى مكانة الإنسان عند ربه ، حتى إنه يخلقه مهيأ للخير مجلوباً عليه « فطرة الله التى فطر الناس عليها »

الخلق والتخلق :

والغزالى يرى أن تربية الخلق الفاضل تكون بالتخلق ، أى حمل النفس على الأعمال الصالحة الطيبة ، ومن هنا نشأ اهتمام الغزالى بالرياضة الروحية وتقديره اياها و إيمانه بضرورتها و يقرر أن كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح و يعلل ذلك بقوله (كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح ، حتى لا تتحرك إلا على وفقها ، وكل فعل يجرى على الجوارح يرتفع منها أثر إلى القلب ، والدليل على ذلك أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة صفة نفسية له فلا طريق له ألا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق

ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكى الخط الحسن، حتى يصير صفة لازمة له ، بعد ان كان فى الابتداء تكلفاً .

وكذلك من أراد أن يكون حسن الخلق ، فعليه أن يحاكى ذوى الأخلاق الحسنة ، حتى يصبح بالتكرار منهم .

واجب المرشد الأخلاقى :

الخلق السىء عند الغزالى،هو مرض القلب ؛ فإذا كان الجهل يعالج بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، فسوء الخلق يعالج بمجاهدة النفس .

وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء، ومشاق التعليم ، فلا بد أيضاً من احتمال مرارة المجاهدة، والصبر على احتمال المداومة، على تلك المجاهدة .

والغزالى طبيب نفسانى ماهر ، فهو يرى أن الدواء ، إذا زاد قتل ، وإن قل أخفق ، وأن هذا الدواء قد ينفع لشخص ما ويضر غيره ، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى، بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد، لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة والمجاهدة ، أهلكهم، وأمات قلوبهم ، بل ينبغى أن

ينظر فى مرض المريد وحاله وسنه ومزاجه و بيئته و يبنى على ذلك حكمه وعلى هذا الهدى يقرر نوع رياضته .

وتلك لفتة بارعة من الغزالى ، فلكل نفس حالتها ومزاجها الخاص ، فإذا لم يراع فى تهذيبها ظروف البيئة والمزاج والاستعداد النفسى لم يصل المربى إلى غايته ، ولم يحصل داعى الأخلاق على أمنيته .

الصفات التى يجب تهذيبها :

الفضائل فى مجموعها عند الغزالى تنحصر فى معنيين ، جودة الذهن والتميز ، وحسن الخلق ، فجودة الذهن لميز طريق السعادة والشقاء ، وليعتقد الحق فى الأشياء ببراهين قاطعة مفيدة لليقين لا عن تقليدات ضعيفة ولا عن تخيلات واهية ، وأما حسن الخلق فإنه يزيل جميع العادات السيئة التى عرف الشرع تفاصيلها فيتجنبها ، و يتعود العادات الحسنة و يشتاق إليها .

ثم ينتقل الغزالى من ذلك إلى تفصيل القوى النفسية التى يجب تهذيبها فيحصرها فى ثلاث قوى رئيسية .

قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب .

فإذا هذبت قوة التفكير كما ينبغى حصل بها الحكمة التى أخبر الله عنها بقوله «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً» وثمرتها أن يتيسر له التفريق بين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الصدق والكذب فى المقال ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال ، ولا يلتبس عليه شىء من ذلك .

والقوة الثانية هى الشهوة ، وبإصلاحها تحصل العفة حتى تنزجر النفس عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتنقاد للمواساة والإيثار المحمود بقدر الطاقة .

والثالثة الحمية الغضبية ، وبقهرها وإصلاحها يحصل الحلم ، وهو كظم الغيظ ، وكف النفس عن التشفى ، وتحصل الشجاعة وهى كف النفس عن الخوف والحرص .

فإذا أصلحت القوى الثلاث وضبطت على الوجه الذى ينبغى ، وإلى الحد الذى ينبغى ، وجعلت القوتان منقادتين للثالثة التى هى الفكرية العقلية ، فقد حصلت العدالة ، وبمثل هذا العدل قامت السموات والأرض ، وهى جماع مكارم الشريعة وطهارة النفس وحسن الخلق كقوله صل الله عليه وسلم «أكمل المؤمنين

إيماناً أحسنهم أخلاقاً وألطفهم بأهله» وقوله «أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون» .

أمهـات الفضائل النفسية :

وانتقل الغزالى من تلك القوى الثلاث التى يجب تهذيبها إلى الفضائل النفسية ، فقسمها إلى أربعـة أصول رئيسية تشتمل شعبها وأنواعها على الفضائل عامة ، وهى :

الحـكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة .

فالحـكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة وكمالها الورع فضيلة القوة الشهوانية .

فالحـكمة : تنطوى تحتها العلوم اليقينية الصادقة التى لا تختلف باختلاف العصور والأمم ، كالعلم بالله تعالى وصفاته وكتبه ورسله وأصناف خلقه فى العالم ، والعلوم التى تساس بها قوى النفس وتساس بها الجماعات والأمم .

والشجاعة : وكمالها المجاهدة والعدالة ، ينطوى تحتها الكرم والنجدة وكبر النفس ، والاحتمال والحلم والثبات والنبل والشهامة والوقار .

والعفة : وينطوى تحتها الحياء والخجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام وحسن الهيئة والقناعة والهدوء والورع والطلاقة والظرف والمساعدة .

والعدالة : وكمالها الإنصاف ، الإنصاف العام فلا تحب لأخيك إلا ما تحب لنفسك وتكره لأخيك ما تكرهه لنفسك ، وتعطى الحق كاملاً .

فالعدالة جامعة لجميع الفضائل ، والجور مقابل لها ، وهو جامع لجميع الرذائل .

تلك هى جماع الفضائل النفسية عند الغزالى ، وهو يشرح كل واحدة منها شرحاً كاملاً شاملاً ، مستمداً أدلته من الكتاب والسنة والكشف والأمثال .

ثم يعقبها بالفضائل البدنية . ويحصرها فى أربعة أمور : الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر .

ولكل واحدة من تلك الفضائل عنده معان وصفات وأهداف وواجبات ، تستغرق من بحوثه صفحات وصفحات .

ثم يتم هذه الفضائل بفضائل يسميها «فضائل مطيفة بالإنسان» وهى أربعة أمور أيضاً :

المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة :

ولا يتم الانتفاع بشيء من ذلك ، إلا بالنوع الخامس ، من الفضائل ، وهى الفضائل التوفيقية ، وهى أربعة :

هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده .

ذلك هو الدستور الخلقى للغزالى ، وهو دستور تشتمل عليه طائفة كبيرة من كتبه ، وينثره كالعطر بين أسطره وفصوله ، فى مختلف كتبه وفنونه .

وهو دستور ، وإن لم يخضع للقواعد النفسية ، والنظريات العلمية الحديثة — بل خضع خضوعاً تاماً للفكرة الدينيـة والآداب الإسلامية — فقد حقق كثيراً من أهدافه ومراميه ، واستطاع أن يكون إماماً مرشداً الملايين ، أحقاباً وقروناً .

هو دستور ، أوجد فى الشرق مدرسة ، تأدبت بآدابه ، وتتلمذت على فضائله ، بل لقد هيمن هذا الدستور ، على أهداف الوعظ الإسلامى ، هيمنة كاملة ، ملموسة الأثر إلى يومنا .

الغزالى وصلات الرجل بالمرأة

حديث الغزالى عن المرأة مطبوع دائماً بطابع الخلق الكريم ، فهو يقيم صلات الرجل بالمرأة على آداب عليا وتقاليد مهذبة ، لا تجنح إلى الشدة ولا تدفع إلى الاستهتار .

فهو يقرر أن سيادة البيت للرجل وبدون تلك السيادة لا تستقيم الحياة ولا توجد السعادة ، فمن أطاع المرأة وملكها نفسه ، فقد عكس القضية إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً ، وقد سمى الله تعالى « الرجال قوامين على النساء » « وسمى الزوج سيداً » فقال تعالى « وألفيا سيدها لدى الباب » فإذا انقلب السيد مسخراً فقد بدل نعمة الله كفراً ولكنه يفرض للمرأة حقوقاً مقدسة ، ويفرض على الرجل واجبات يؤديها للمرأة ويلزم بها إلزاماً هى كفاء سيادته .

ولعل المرأة لم تطمع يوماً من الأيام مهما نادت بالمساواة وتطرفت فى تلك المساواة فى كلمة أروع من تلك الكلمة التى جعلها الغزالى محور صلات الرجل بالمرأة وهى قوله : « ليس

حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها » .

ذلك دستور الغزالى الخلق فى صلات الرجل بالمرأة ، فليس حسن الخلق كف أذى الرجل عن المرأة ، بل احتمال الأذى منها عند غضبها وطيشها .

ويأمر الغزالى الرجل بأن يكون بشوشاً مرحاً مع زوجه ، فيطيب قلبها بالمزاح والمداعبة ، ولا يقتر فى الإنفاق عليها ، بل يجب عليه أن يتحفها دائماً بالهدايا والحلوى كما أن عليه أن ينظر فى حاجة المرأة إلى حقوق البدن وندائه وهو أساس التحصين والعفـة .

والاعتدال فى الغيرة هو قاعدة السعادة والهناء فى الحياة الزوجية ، فيقول الغزالى : يجب على الرجل أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التى تخشى غوائلها ، ولا يبالغ فى الظن والتعنت وتجسس البواطن .

ومبدأ الاعتدال فى الغيرة من أسمى المبادىء ، بل هو أصل من الأصول المؤدية إلى هناء العش الزوجى ، وإطلاق النور والمحبة والصفاء فى رحابه .

وينادى الغزالى بضرورة تعليم المرأة ، ولكنه يقصر تعليمها على الأمور الدينية ويلزم الرجل بتعليم زوجته الصلاة ومبادىء الدين ، فإن قصر وجب على المرأة أن تخرج لتتعلم ولاجناح عليها فى ذلك ، وليس للرجل أن يمنعها، إذ العلم واجب دينى على الرجال والنساء فإذا أتمت تعلم الفرائض وأصول الدين ، فلا يحق لها أن تخرج للاستزادة من العلم إلا برضاء الزوج وموافقته .

ويلح الغزالى على الرجل إلحاحاً كبيراً فى وجوب الرفق بالمرأة ، فيقول فى كتابه التبر المسبوك : « إن من أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيما بها فليذكر ، أن المرأة لا تقدر أن تطلقه وهو قادر على طلاقها ، وأنها ما دامت فى عصمته لا تقدر على زوج سواه ، وهو قادر على ذلك وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى بجميع أفعالها ، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله ، وهو لا يفارق لأجلها أحداً » .

الغزالى والطلاق :

الطلاق إحدى المسائل الرئيسية التى أسرف الناس فيها إسرافاً لا يرضاه الشرع ، ولا تقره نظم الحياة الاجتماعية .

فالطلاق ديناً ، ليس هوى ومتاعاً للنفوس بل ضرورة وضرورة عظمى ، فى حالة شاذة لا سبيل إلى إصلاحها وعلاج شرورها إلا به ، وهو أبغض الحلال إلى الله لما فيه من أذى .

والغزالى يقول : إن الطلاق إيذاء ، ولا يباح للرجل إيذاء المرأة إلا بجناية من جانبها .

ولا بد عند الغزالى أن يسبق الطلاق مجالس للصلح والتوفيق كما أمر القرآن ، فإذا وقع بين الزوجين خصام وشقاق ، فلا بد من حكمين حكم من أهله وحكم من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ، ولا يجب الطلاق قبل ذلك ،ولا ينبغى لأنه ايذاء وضرر .

وما يراه الغزالى هنا هو خلاصة روح الإسلام وتشريعه ، بل ما أحوج عصرنا اليوم إلى تدبره وتنفيذه ، فلا يباح الطلاق إلا بجناية زوجية ولا يباح الطلاق قبل التحكيم فى النزاع والسعى فى التفاهم والوفاق .

رسالة العلم وآداب المتعلمين

خطأ الجمهور والكتاب فى فهم الغزالى :

آراء الغزالى فى العلم ، على لونين ، لون صوفى ينادى بالعلم الأخروى والعزوف عن سواه ، ولون آخر يقدس العلوم كافة ويدعو إليها و يأمر بها .

وقد التبس هذا الأمر على كل دارسى الغزالى والمتتبعين لآرائه بل إن لسوء فهم آراء الغزالى فى العلم أثراً بعيد المدى جداً فى التفكير الإسلامى .

فالغزالى قد هيمن على عقول القرون التى تلته هيمنة كاملة ، وقد فهم جمهرة أتباعه ، ومن تثقف على آرائه ، أنه يخاصم العلم الدنيوى ، بل لقد وقع فى هذا الخطأ كثير من العلماء والسادة فظنوا ، وأكثر الظن إثم ، أن الغزالى يحارب علوم العقل والتجربة بل ويذمها ويحقرها ، ولا يدعو إلا إلى علوم الآخرة .

وقد حسب كثير من الناس فى قرون متتالية أنهم يتابعون الغزالى ، وهو حجة الإسلام إذا أعرضوا عن الدنيا إعراضاً كاملاً ، نعيمها وطيباتها وعلومها أيضاً .

وتسلسلت هذه الفكرة مع القرون وتتابعت مع السنين، وجارى العلماء العامة فى تفهم الغزالى ، بل جارى العامة كثيراً من رجال الفكر والقلم ، فظنوا بالغزالى ما ظنوا ، ووقفوا من آرائه فى العلم والتعليم موقفاً مضحكاً ! حسبوا فيه أنهم يسخرون من الغزالى لتعدد آرائه وسوء فهمه، وهم يسخرون من أنفسهم لأنهم لم يتفهموا حقيقة آرائه ؟

وسر هذا الخطأ فى الفهم أن الغزالى كان يكتب فى أواخر حياته كتبه للصوفية وعلى طريقتهم ، وما كتب للصوفية لا يصلح ألا لهم ولا يباح للناس جميعاً ، وليس هو الحق وحده والغزالى يقول « إن هذا الطريق ليس للناس جميعاً ولو تبعه الناس وعملوا به لخرب العالم و بطلت الحكمة منه » .

فالغزالى حينما عرف العلم « بأنه العلم الأخروى ، وحينما دعا إلى الاشتغال بالعلم الحقيقى كالعلم بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ، واهمال علوم العقل والتجربة ، إنما كان يخاطب الصوفية وحدهم ، ويقرر مذهبهم القائم على الفناء فى الله والإعراض عن الدنيا بالكلية ، كان يصف صورة مثالية لقوم مثاليين فى عبادتهم .

وهو إذ يعرف علم الفقه بأنه من علوم الدنيا ، ويقول إن الفقيه هو العابد المرشد لا المجادل العالم بأصول الفقة وتخريجات أحكامه ، إنما قصد بهذا التعريف وجهة النظر الصوفية ، وقد نبه الغزالى على ذلك فى مواقف مختلفة من كتبه ، فهو يقول بعد أن أشاد بعلوم الآخرة وحث عليها وأمر بترك ما سواها من علوم الدنيا .

« ولا ينبغى أن يفتر رأيك فى طلب العلوم الدنيوية بما حكيناه عن طريق الصوفية فإنهم لا يعتقدون حقارة العلوم ؛ بل يعتقد كل مسلم حرمتها وعظمتها ، وما ذكروه إنما أوردوه بالإضافة إلى مرتبة الأنبياء والأولياء » .

ثم يقول :

«ومن قصد التقرب إلى الله بالعلوم نفعه الله ورفعه لا محالة» .

ذلك هو قول الغزالى فى وضوح وصراحة ، وكأنما أحس بما سيحدث من سوء فهم لآرائه فنادى بعدم فتور الرأى فى طلب العلوم العقلية بما يحكى عن الصوفيين ، لأن ذلك لهم خاصة وهم لا يحتقرون العلوم ؛ بل يجلونها ويعتقدون عظمتها وحرمتها وقداستها ، بل يقرر الغزالى أن من قصد التقرب إلى

الله بالعلوم على اختلاف أنواعها نفعه الله ورفعه .

بل هو يقرر فى يقين أن الله سبحانه حبب العلوم إلى الناس لصلاح العالم ، فيقول فى كتابه ميزان العمل « فلولا أن الله حبب علم الفقه والنحو والطب والرياضة إلى آخر العلوم فى قلوب طوائف من الناس لبقيت هـذه العلوم معطلة ولتشوش النظام الكلى » .

الغزالى عالم رحب الآفاق تشهد بذلك كتبه وآثاره ، عالم بالعلوم وفنونها على اختلاف ألوانها وغاياتها ، تشهد بذلك أيضاً كتبه وآثاره ، فهو عالم يدعو إلى رسالة العلم كاملة فى يقين وإيمـان ، لأنه يؤمن بأن نظام العالم ، ونظام القوة والسيادة فى الدنيا إنمـا يبنى على العلوم والمعارف الكونية والعقلية ، فمن الخطأ فى حق العلم ، ومن الخطأ فى حق العقل أن يقول قائل إن الغزالى يحارب علوم العقل والكون والتجربة ، وهو إمام من أئمتها .

ولكنه حين يتحدث فى أساليب الصوفية ومبادىء الصوفية يعلى شأن العلوم الأخروية لأنها روح العبادة واليقين ، ويجرى المقارنات بينها و بين علوم الدنيا فيذمها بالقياس إليها وتمجيداً

لها ، والصوفية فئة من الناس ارتضوا لأنفسهم وضعاً معيناً ، وحياة معينة ، ومسلكاً فى الوجود فريداً كالرهبان مثلا ، فما يصلح لهم لا يصلح لغيرهم ، وهم لم يقولوا للناس هلم إلينا ، ولم يقولوا لهم تكلفوا ما نتكلف واتبعوا ما نتبع وتحملوا ما نتحمل .

ولغة الغزالى الصوفية شديدة الخطورة فى تفهم آرائه ، بعيدة الأثر فى تشويه تلك الآراء ، وتشويه آثارها فى النفوس والعقول. وقد فتن كثير من الناس وضلوا بسبب خطأهم فى فهم الصوفية وأغراضها ولغة مباحثها وعلومها .

وهو يعرض صورة الصوفية فى براعة وتشويق شأن أساليبه ، والقلوب تسارع إلى التمسك بتلك الصور المعطرة بذكر الله والجنة ، فتنسى فى تلك الوثبة الروحية فى ختام البحث مثلا ، أن الغزالى قد بدأه بقوله :

« من لم تكن بصيرة عقله نافذة فلا تعلق به من الدين إلا قشوره : بل خيالاته وأمثلته دون لبابه وحقيقته ، فلا تدرك العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية ، فإن العقلية كالأدوية للصحة ، والشرعية كالغذاء ، والنفس المريضة المحرومة من الدواء تتضرر بالأغذية ولا تنتفع بها ، وذلك اعتراف صريح

من الغزالى بأن العلوم الشرعية والأخروية لا تدرك إلا بعد التمكن من العلوم العقلية لأنها الميزان والدواء ؛ بل هو يربط معرفة الله بمعرفة علوم الكواكب والآثار العلوية، ومعرفة أقسام الموجودات وآيات الآفاق فى كثير من بحوثه ، فكيف يتهم الغزالى بعد ذلك بأنه من خصوم العلوم والفنون ؟ .

العلم أصيل فى النفوس :

يرى الغزالى أن النفس الإنسانية معدن للعلم والحكمة ومنبع لها ؛ فالمعارف أصيلة فيها لا دخيلة عليها .

مثلها فى ذلك كالنار فى الحجر ، والماء فى الأرض ، والنخل فى النواة ، ولذلك وجب السعى للتعلم لتعود النفس إلى فطرتها ، ولابد من الصبر والتجمل فى الصبر لإدراك تلك الغاية العليا .

والغزالى هنا متأثر بالصوفية ، فالمتصوفة يقولون إن العلوم كافة موجودة فى القلب ، وإنما أسدلت على القلوب أحجبة من الظلمة طمست تلك الأنوار ، فلو رفعت الحجب بالرياضة والمجاهدة لامتلأت القلوب حكمة وعلماً .

الغـاية من العلم :

يضفى الغزالى على الغاية من العلم ثوباً خلقياً ، لأنه ينظر إلى الدنيا دائماً نظرة مثالية ، فالغاية من العلم عنده هى بلوغ النفس كمالها ، لتسعد بكمالها مبتهجة بجمالها من البهاء والجمال أبد الدهر .

وهذا التعريف يشتمل على أدق ما قيل فى الغاية من العلم ، والهدف الذى ينشده الإنسان من ورائه .

بلوغ النفس كمالها ، تلك غاية العلم ، وغاية هذا الكمال سعادة النفس بما لها من البهاء والجمال ، بهاء العلم ، وجمال المعرفة .

واجبات المتعلم :

ثم يضع الغزالى دستوراً شاملا للآداب والأخلاق والمبادىء الواجبة على المتعلم والمعلم وطرق التعليم ووسائله ، فيرى أن على المتعلم واجبات أهمها .

أن لا يبدأ دراسته في علم ما بتعلم الاختلاف الواقع بين أصحاب هذا العلم ، لأن ذلك يفتر عزمه ، ويضعف إيمانه فيما يعتلم .

وأن لايدع فناً من فنون العلم ونوعاً من أنواعه إلا وينظرفيه

نظراً يطلع به على غايته ومقصده وطريقه ، ثم يتخصص بعد ذلك ، لأن العلوم جميعها متعاونة ، يفيد بعضها بعضاً ، وحتى لا يكون معادياً لعلم ما بسبب جهله له ، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى « وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ».

ثم من واجباته أيضاً ، أن لا يخوض فى فنون العلوم دفعة واحدة ، بل يراعى الترتيب فيبدأ بالأهم فالأهم ، ولا يخوض فى فن من الفنون حتى يستوفى الفن الذى قبله ، وأن لا يبتر العلم بل يتمه ، لأن العلم يجب أن يكون تاماً وإلا كان مضراً ، نعوذ بالله من نصف متكلم ونصف طبيب ، فذلك يفسد الدين ، وهذا يفسد الحياة الدنيا .

تلك آراء الغزالى فى واجبات طالب العلم وأساليب التعليم ، وهى تطابق أرقى البرامج العلمية الحديثة ، وتتمشى جنباً إلى جنب مع المناهج المستحدثة فى الكليات والجامعات من حيث التخصص بعد الإلمام العام .

ومن أروع لفتات الغزالى البارعة أنه يحب الاطلاع على كل علم حتى لا يعادى بسبب الجهل به لأن الناس أعداء لما جهلوا .
ثم يجعل الغزالى رسالة العلم مستمرة ، فيقرر أن المتعلم إذا بلغ

الغاية من العلوم أصبح من الواجبات المقدسة عليه أن يعلم غيره حتى تتم حلقة العلم فتشمل الإنسانية كافة .

واجبات المعلم :

وعلى المعلم آداب وواجبات أهمها :

أن يجعل تلاميذه عنده كبنيه تماماً حباً ورعاية وإخلاصاً فى تثقيفهم وتعليمهم ، وتزويدهم بالمثل العليا التى تفيدهم وتفيد الإنسانية على أيديهم .

وعليه أن يعمل بما علم قبل أن يدعو الناس إلى علمه ، فعلم الشرع لا يكذب حاله مقاله وإلا نفر الناس من آدابه وشرعه .

والطبيب إذا تناول ما زجر الناس عنه حملهم على الهزء به وتناول ما نهاهم عنه ولو كان من السموم ، فيضل ويضل ، وينقلب النهى إغراء وتحريضاً .

والعلم والعمل صفتان متلازمتان عند الغزالى ، فلا قوام لإحداهما بدون الأخرى ، فإذا ترك المعلم ما يهديه إليه علمه ويأمره به فقد ضل وأضل ، وفقد ثقة الناس، بل يجب الإعراض عنه وإخراجه من حظيرة العلم .

القدرية والتوكل

فكرة القضاء والقدر إحدى مشاكل الشرق الكبرى ، وقد خدع كثير من عوام المسلمين بها ، كما نسبها إلى الإسلام ظلماً كثير من الأوربيين .

والغزالى فى نظر الجماهير الإسلامية فى عصرنا وفى العصور السابقة ، إمام من أئمة المنادين بالتوكل والقدرية ، لأنه إمام من أئمة التصوف والصوفية .

والغزالى برىء من هذا ، براءة الإسلام منه ، وإنما نشأت تلك العقيدة من تطرف بعض الصوفية ، ومن سبحات أقلامهم بكلمات تبرق فتخدع من لا يعرف حقيقة الإسلام وحقيقة دعوته إلى العمل والحياة والقوة والكفاح .

يقول الغزالى :

«من الخطأ أن يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم فهذا ظن الجهال .

لأنك أن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز ، أو يخلق

فى الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت فى أن يخلق الله نباتاً بغير بذر، أو تلد زوجتك بغير وقاع، فلا يجوز لك ترك الأسباب كما يجب أن تعلم أن مسبب الأسباب هو الله تعالى»

تلك هى الكلمة القوية التى نفى بها الغزالى تهمة التوكل عن مبادئه، وبالتالى عن مبادىء الإسلام .

ومن عجب أن الأمثال أصبحت تضرب بالغزالى إذا ذكرت مذاهب القدرية، ومذاهب المتوكلين الخاملين المتهالكين على الكسل والراحة باسم الدين والقدوة الصالحة .

بل أعجب من هذا، أن أقلام الكتاب الذين كتبوا عن الغزالى قد جارت العوام والجمهرة من الناس، فنسبوا إلى الغزالى ما يبرأ منه وما يبرأ منه الإسلام

ووجه الشبه عند هؤلاء، وهؤلاء هو ما تزخر به كتب الغزالى من ذكر الصوفية وأخبارهم، وما فى قصصهم من توكل مطلق.

وقد أوضحنا أن الغزالى يكتب هذا القصص للصوفية فقط، وأنه يقرر أن الصوفية مذهب خاص لا عام، وأن فكرتهم لو سادت لفسد العالم وبطلت الحكمة منه .

الغزالى وتفسير القرآن

كتاب « جواهر القرآن » للغزالى يدل دلالة واضحة على إيمان الغزالى العميق بأن القرآن مصدر كامل لعلوم الروح والبدن والطبيعيات والفلكيات والنباتات ، بل وعلوم الآلات بسائر فروعها .

ولهذا فإنه يجب على مفسر القرآن أن يكون محيطاً بكل هذه العلوم حتى يؤدى أمانة التفسير كاملة .

فاذا قال القرآن مثلاً « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك » فلا يفسر هذه الآية التفسير الكامل المراد منها ، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها . . الخ »

وإذا تعرض لقوله تعالى « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى » ، فكيف يفسر تلك الآية من يجهل التسوية والنفخ والروح وأسرارها .

وإذا قال القرآن « والشمس والقمر بحسبان » وقال « وقدره

منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » ، وقال « وخسف القمر وجمع الشمس والقمر » ، وقال « والشمس تجرى لمستقر لها » ، فلا يعرف حقيقة الشمس وسيرها وأبراجها ومنازلها ، والقمر ودوراته ، وخسوفهما ، وولوج الليل فى النهار ، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم تتفرع منه علوم .

أما آية « وإذا مرضت فهو يشفين » فهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله وأحاط بدقائقه وأسراره .

وتلك دعوة صريحة من الغزالى إلى الإحاطة التامة بالعلوم كافة ، وهى تنفى تهمة إهمال العلوم العقلية التى نسبت إليه فهو يقرر أن مفسر القرآن لابد وأن تتوفر فيه القدرة الكاملة على تفهم العلوم العقلية قبل الشريعة ، حتى يستطيع أن يتفهم أغراض القرآن ، ويستطيع أن يبرز للعالم ما فيه من عظمة وجلال وعلوم ومعارف .

ويقول الغزالى بعد أمثلة كثيرة شاملة « ولو ذهبت أفصل ماتدل عليه آيات القرآن الكريم من تفاصيل وعلوم لطال الأمر وتشعب ، فتفكر فى القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علوم الأولين والآخرين » .

الغزالى وصفات التشبيه والتجسد :

يقول الغزالى ، إن الإنسان لا يحتمل الحقائق الروحية إلا مصبوبة فى قالب الأمثال الخيالية ، ومن هنا نفهم ما ورد فى القرآن من آيات الصفات والتجسد .

فهى آيات للتقريب والفهم ، لا للدلالة على صور وصفات ، وبذلك ينفى الغزالى صفات التشبيه ، ويقرر أن إدراك ذلك إنما يكون بإدراك المناسبة ، بين عالمنا وعالم الروح ، فالمثال الجسمانى مندرج تحت المعنى الروحانى .

ويضرب لذلك مثلاً بالمنامات ، وهى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وكيف تكشف حقيقتها بأمثلة خيالية .

فقد روى بعضهم ، أنه شاهد فى منامه ، أن فى يده خاتماً ، يختم به فروج النساء ، وأفواه الرجال فقال له ابن سيرين « أنت رجل تؤذن فى رمضان قبل الصبح ، فقال نعم » ، يقول الغزالى « فانظر ختم الأفواه والفروج بالخاتم مشاركاً للآذان قبل الصبح فى روح الخاتم ، وهو المنع وإن كان مخالفاً لصورته ، وقس على ذلك ما ورد فى القرآن والأحاديث والأمثال فإنها تشتمل على كثير من هذا

الجنس » كقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » فإن روح الإصبع القدرة على سرعة التقليب ، فإن قلب المؤمن بين الغواية والهداية ، والله تعالى يقلب قلوب العباد ، كما يقلب الإنسان الأشياء بإصبعين ، وكذلك سائر الأحاديث والآيات الموهمة للتشبيه والاستواء .

فمن عرف معنى الإصبع ، عرف بعد ذلك معنى القلم فى قوله تعالى « علم بالقلم » ومعنى اليد فى قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » .

الغزالى والاكتشافات العلمية :

وللغزالى رأى عجيب مبتكر فى علوم مقبلة وعلوم مندرسة فهو يقول :

« ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها ، أن فى الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم العجيبة لم تخرج بعد من الوجود ، وإن كان فى قوة الآدمى الوصول إليها ، وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن ، فلن يوجد فى هذه العصور على وجه الأرض من يعرفها ، وعلوم أخرى ليس فى قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين » .

والغزالى بهذا قد تنبأ بالمعارف الإنسانية التى نشاهدها فى عصرنا ولم يشاهدها هو فى عصره ، والتى ستشاهدها العصور القادمة ولم نشاهدها نحن .

ونظريته فى العلوم المندرسة يشهد بصحتها العلم الحديث والاكتشافات التاريخية ، فقد وجد لدى قدماء المصريين فى مقابرهم من أسرار الكيمياء وتحنيط الأجساد والحبوب وأسرار البناء والفلك ما لم تهتد إليه المعارف الحاضرة .

رموز القرآن :

وللغزالى كتاب سماه رموز القرآن ، ولكنه لسوء الحظ لم يطبع ، وأما نسخته الخطية فقد نقلها المستشرقون إلى برلين وبذلك فقدنا الدليل الذى كنا نستطيع به أن نعرف هل استطاع الغزالى أن يفسر القرآن بالشروط التى اشترطها ، أم عجز عن الوفاء بما اشترط ؟ وقد أشار غير واحد من المؤرخين إلى أن الغزالى قد أشار فى كتابه هذا إلى الكهرباء والديناميت والهواء الخفيف ، ولكن ليس فى استطاعتنا أن نؤكد صحة هذه الأشياء ، فدليلها مفقود ، وآيتها فى بطون صفحات لا تزال محجوبة عن الشمس .

الغزالى بين أنصاره وخصومه

« أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم من لا ينظر »
« الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل بعضهم »
« بعين الرضا وبعضهم بعين السخط » .
الغزالى

الغزالى أحد مشاكل الفكر فى التاريخ الإسلامى ، فقد عشقه أقوام حتى رفعوه مكاناً علياً ، لا ترقى إليه الشبهات ، ولا تناله النقدات ، فنادوا به قطب العلوم الأكبر وحبر الأمة الأعظم ، بل سموا به سمواً كادوا يصلون به إلى العصمة ، وأسدلوا عليه ستاراً من الرهبة ، وأطلقوا عليه شعاعاً من النور الألهى حتى أنهم ليقرؤن كتابه « أحياء العلوم » فيجعلونه أوراداً للتبرك بعد القرآن والسنة ؟

وقالوا فيما قالوا ، أن الصالحين منهم شاهدوا الرسول صلوات الله عليه فى المنام يبارك الغزالى ، ويعاقب خصومه ، ويفاخر به أنبياء بنى اسرائيل ، وان موسى عليه السلام ، قال له ، إنك تقول أن علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل ، قال نعم ، قال فما

دليلك ، قال على بروح الغزالى ، فلما حضر قال له موسى ، ما اسمك ؟ قال محمد بن محمد بن محمد الغزالى ، قال سألتك عن عن اسمك فلم ذكرت لى اسم أبيك وجدك ؟

قال الغزالى وأنت سألك ربك عما بيمينك فقلت هذه عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى وقد سألك عما بيمينك فقط ، قالوا فحاجه الغزالى .

ولا ريب فى أن أنصاره أسرفوا وغالوا فى الإسراف ، كما أن خصومه قد أسرفوا وغالوا فى الإسراف .

كان الغزالى يخطىء ويصيب ، والشخصية الإنسانية الكاملة هى التى تخطىء وتصيب ؟

فلا يليق بالمغالين أن يغضبوا إذ قيل أن الغزالى استقام تفكيره هنا ولم يستقم هناك ، لأنهم يقدسونه ويجلونه عن الخطأ ، وليس هكذا الإنسان .

والغزالى بعد ، لسان من ألسنة الدين القوية ، وحجة من حججه الباهرة ، ومجاهد من أكبر مجاهديه ، وقائد من أعظم الهداة فى القافلة ، ومفكر من أئمة رجال الفكر فى تاريخ الفكر .

فلن نرضى من خصومة أن يسلبوه العلم أو الأيمان ، ولن

نرضى من خصومه أن يجردوه من المنطق والصواب ، ولن نرضى من خصومه أن يهبطوا به إلى مناطق العامية والركاكة .

كان الرسول صلوات الله عليه ، يقول لعلى كرم الله وجهه : هلك فيك رجلان ، رجل غالى فى محبتك ، ورجل غالى فى عداوتك .

وما أصدق تلك الكلمة على الغزالى ، فقد غالى قوم فى محبته حتى جحدوا المنطق فأقاموا الهوى علما وحجة ، وغالى قوم فى عدواته حتى فقدوا قداسة الإنصاف ، فأضاعوا الحقيقة التاريخية وشوهوا حقائق العلم والهدى .

الغزالى أحدث دوياً علمياً فى جيله ، وأحدث دوياً علمياً فى الأجيال المتعاقبة وتلك سمة الخلود ، وطابع العبقرية .

والمشكلة الحقيقية ليس محورها الغزالى فحسب ، بل محورها ومحركها الصراع بين مدرستين والتباغض بين فكرتين ، اختلفتا فى المزاج والتأويل ، كما اختلفتا فى التعليم والتفكير .

فالغزالى بعد أن برع وتفوق فى مختلف العلوم والفنون أعرض عنها ولجأ إلى شعاع من الكشف الروحى جعله محور العبادة والهداية ، ومن ثم أضفى على الفقه وسائر العلوم الإسلامية ثوباً

صوفياً شمل أصولها وفروعها ، واستطاع الغزالى أن يوقظ الشعور ويلهب حرارة الروح والأيمان فى الجماهير ، كما استطاع أن يتزعم رجال المذاهب الصوفية وهم قوة لها أثرها ونفوذها الضخم الساحر فى التفكير الإسلامى .

وخاصم الغزالى شتيت من المفكرين على اختلاف ألوانهم ونحلهم من الفلاسفة إلى علماء الكلام ، خصومة أساسها إسراف الغزالى فى التمسك بالمظاهر الروحية ، وإسراف هؤلاء فى التمسك بالمظاهر العقلية .

وانضم إلى هؤلاء الخصوم بعض رجال الفقه ، لأن الغزالى هاجمهم هجوماً عنيفاً وزلزل مكانتهم فى قلوب الجماهير زلزالاً كبيراً إذ نادى بصوته القوى ، بأن الفقيه هو العابد العامل بعلمه ، لا العالم البارع فى المجادلات والتخريجات ؟

وما أصدق ابن السبكى « إن الطرق إلى المعرفة شتى مختلفة ، وقلما رأيت سالكا لطريق من الطرق ، إلا واستقبح الطريق التى لم يسلكها ، ولم يفتح عليه من قبل فيها ، فيضع عند ذلك من أهلها .

وقد تعددت الكتب والآراء التى صدرت فى نقد الغزالى ،

ولكن أشد خصومه التارخيين ابن رشد من الفلاسفة ، وابن القيم من المجددين الإسلاميين .

أما ابن رشد فقد هاجمه دفاعاً عن الفلسفة وانتصاراً للفلاسفة وهو هجوم لم يثبت على التاريخ لأن الغزالى كان فيه نصيراً للروح الإسلامى ، وكان ابن رشد فيه صدى لأفكار غيره من فلاسفة الأغريق وسواهم من المتأخرين .

وأما ابن القيم ومن ذهب مذهبه وجرى فى عنان الخصومة جريه فقد حصروا نقدهم للغزالى فى عشرين مسألة تدور بأسرها على محور واحد وهو أسراف الصوفية فى الابتعاد عن المظاهر الإسلامية وأهم تلك المسائل :

(١) قول الغزالى « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » فقد اعتبروا أن فى تلك الكلمة ما يوهم العجز فى قدرة الله تعالى

(٢) وصفه الرياضة الروحية ، بأنها تفريغ القلب بالخلوة ، والجلوس فى مكان مظلم ، فإنه فى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ، ويشاهد جلال الربوبية ، فيقول له ابن القيم ، « وما أداك إن ما يسمعه حينئذ هو هذيان روحه ووسوسة شيطانه ، فإن الامتناع عن الأكل والاختلاء فى الظلام يبعث الوساوس والجنون

٣ — تأييده لقول الجنيد ، إذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنك بعقوبة شهوة الحرام ؟

٤ — تقريره أن بعضهم بات عند السباع فى البرية ليتحقق من صحة توكله على الله ؟

٥ — قوله إن بعض الشيوخ كان يكسل فى بدايته عن قيام الليل فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفسه بحيث تجيبه إلى قيام الليل اختياراً !

٦ — قوله فى الأحياء إذا طلب الرجل علم الحديث أو سافر فى طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا .

٧ — قوله نقلا عن أبى حمزة البغدادى « إنى لأستحى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعى زاداً تزودت به » .

٨ — تقريره ما حكاه عن أبى حسن الدينورى أنه حج اثنتى عشر حجة وهو حاف مكشوف الرأس .

قال ابن القيم : « هذا من أعظم الجهل لما فى ذلك من الأذى للرأس والرجلين ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكأن هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف

وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بجانب ، فنعوذ بالله من تلبيس إبليس ، فإن مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام فيظنون أن فعله من الصواب »

ويقول ابن القيم أيضاً :

« وإنى لأتعجب من أبى حامد هذا كيف يأمر بهذه الأمور التى تخالف الشريعة وكيف يحل لأحد أن يقوم على رأسه طول الليل ؟ وكيف يحل رمى المال فى البحر فيما رواه عن الشبلى من أنه كان يرمى ما معه من الدنانير فى الماء ويقول « ما أعزك عبد إلا أذله الله » . ثم يعقب ابن القيم بقوله :

« كانت الزنادقة فى العصر الأول يكتمون حالهم ولم يتجاسروا على إظهار ما عندهم حتى جاءت الصوفية فرفضوا الشريعة جهراً وتستروا بمسمى الحقيقة وصاروا يقولون : هذا شريعة وهذا حقيقة ، وهذا من أقبح الأمور ، لأن الشريعة قد وضعها الله تعالى لصالح العباد فى الدارين فما الحقيقة بعد ذلك إلا إلقاء الشيطان فى النفس ، وقد تمادى هؤلاء الجهلة فى غيهم حتى صار أحدهم يقول حدثنى قلبى عن ربى ، وذلك تصريح بالاستغناء عن بعثة الرسل وهو كفر ، وهى حكمة مدسوسة فى الشريعة

تحتها هذه الزندقة ، ولـكن قد صار الخروج عن الشريعة كثيراً بالسكوت على هؤلاء الجهال الذين سموا أنفسهم بالصوفية »

تلك هى خلاصة التهم التى وجهت إلى الغزالى ، وتلك هى خلاصة الأقوال العنيفة التى وجهها إليه خصومه .

وهذا التراث الضخم الذى تركه الغزالى ، وهذه الخصومة العنيفة التى أثارها ما كان ينبغى لها أن تمر دون أن يجد خصومه فى آثاره ما يمسكونه به ، وما يأخذونه عليه .

ولا جدال فى أن الغزالى قد أسرف على نفسه ، وأسرف على قرائه بتلك السبحات الصوفية التى تدل ظواهرها على ما يخالف ظواهر الشريعة الإسلامية .

ولا جدال أيضا فى أن الغزالى كان يعلم حقيقة الشرع أكثر مما يعلم خصومه ، وأنه كتب ما كتبه لفئة معينة من رجال التصوف الزموا أنفسهم بألوان من العبادات والطاعات معينة . وحالات الإلزام الشخصية الاختيارية لا إعتراض عليها ما لم تؤدى إلى الضرر العام .

ولـكن قراء الغزالى وخاصة الجماهير لا تستطيع أن تميز بين ما أراده الغزالى للصوفية وبين ما يكتبه للناس جميعا .

وقد دافع عن الغزالى فريق من أنصاره وأتباعه دفاعاً قوياً ، فوضع السيد مرتضى كتابه « اتحاف السادة » ، فند فيه جميع تلك التهم تفنيدا لا يخلو من إسراف فى الدفاع عن الغزالى ، وتبرئته من كل خطأ .

ولا يسعنا إلا أن نكرر أن الغزالى كان يخطى ويصيب ، والشخصية الإنسانية الكاملة هى التى تخطىء وتصيب ، وتلك الهنات لا تعد شيئاً بجوار ما أسدى الغزالى إلى العالم الإسلامى وإلى الفكر الإسلامى من تراث انتفعت به الأجيال والقرون انتفاعا هداها إلى خير ورشاد وعبادة وإيمان أكثر مما هداها خصومه وحساده ، بل أكثر مما هداها أى قلم آخر من الأقلام التى شرعت للهدى والايمان .

خصـومة المعاصرين :

ذلك لون من ألوان خصومة القدامى للغزالى ، وقد امتدت تلك الخصومة على التاريخ ولبست ألواناً مختلفة ، حتى أسلمتها الأحقاب إلى عصرنا .

فرأينا خصوماً جدداً فيهم عنف ولدد . أخذوا يحاكون

الغزالى إلى مبادئ العصر الحاضر ونظمه ومعارفه ، وشرعوا يحكمون على روحانيته بماديتهم ، فما أنصفوا أنفسهم وما أنصفوا الغزالى معهم !

قالوا عنه إنه رجل يحمل أكفانه على عاتقه ، ولا ينفك لسانه عن الدمدمة بالعقاب والحساب ، والجنة والنار ، والعبادة والفناء . وليس هذا من مذاهب الحياة المثلى ، ولا من طرائق المجد للإنسانية التى تبغى قوة وبأساً .

وقالوا إن الغزالى مزج الدين بالآخرة ، فحشد فى كلماته أنفاس الجحيم ليسوق الناس بالرعب والخوف ، وجمع فى قلمه هبات الجنة ليدفع بالبشرية إلى الطاعة بالرغبة والتشويق ، وليس فى هذا فوز كبير للأخلاق ، ولا فوز كبير للدين ، لأنه مسلك بعيد كل البعد عن الإقناع العلمى والبرهان المنطقى .

وقالوا فيما قالوا أيضاً إن الغزالى أجهل الناس بقواعد العلم وفلسفة الحكماء ، لأن العلم عنده طاعة وعبادة ، فمن خشى الله فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل . وبهذا أخرج الغزالى من صفوف العلماء والحكماء أئمة الفكر والابتكار والاختراع .

وليس فى هذا ما يضير الغزالى أو يمس مكانته ، فقد قرأ

هؤلاء النقاد كتب الغزالى كما تقرأ الكتب الحديثة ، فنقدوها كما تنقد المؤلفات العصرية ، ووزنوها بموازين المكتشفات العلمية الجديدة دون أن يلتفتوا إلى القرون التى تفصل بيننا وبين الغزالى ، ودون أن يقارنوا بين روح عصره وطابع عصرنا ، بل لعل الخطأ الأكبر أنهم نقدوه بروح العلم المادى ، وهو يحمل بيمناه قلم الدين الروحى .

وما أصدق قول الغزالى فى الدلالة على هذا المعنى : « مهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين جحده أهل الكياسة فى سائر العلوم ، فلا ينفرك جحودهم عن قبوله إذ محال أن يظفر سالك طريق الشرق بما فى الغرب » .

أجل لقد سلك الغزالى طريقاً ، وسلك نقاده طريقاً آخر ، فلم يلتقيا ولم يأتلفا ولم يتفاهما ، لأنه محال أن يظفر سالك طريق الشرق بما فى الغرب .

الغزالى رجل دين ، وفيلسوف من فلاسفة الروح والقلب فلا توزن معارفه إلا بموازين الدين ولا يقاس تراثه إلا بالأقيسة الروحية القلبية .

ومن أراد أن يفهم الغزالى فلا بد أولا أن يتذوق سعادة

الطاعة والعبادة . وسعادة الإيمان اليقينى وسعادة السلام الروحى ولا بد أن يؤمن بأن خالق الا كوان يراقب خلجات نفسه . وخلجات قلبه ووجهات أعماله ، وأنه إذا لم يكن يرى الله فإن الله يراه .

من أراد أن يتذوق الغزالى فليؤمن إيمان الغزالى ، أو فليحترم تلك المثل العليا التى فنى فيها الغزالى ، ورصد قلبه وقلمه لها ، وبدون هذا الإيمان ، وبدون هذا الإحترام لا ان يفهم أرباب الأقلام سحر الغزالى ، وعبقريته وتراثه .

مجدد القرن الخامس

عن أبى هريرة أن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها .

وقد اتفق علماء التاريخ على أن مجدد المائة الأولى عمر بن عبدالعزيز والمائة الثانية الإمام الشافعى ، والثالثة الإمام الأشعرى والرابعة الباقلانى ، والخامسة حجة الإسلام الغزالى .

والإسلام شريعة أحكمت وفصلت آياتها ، و بينت للناس ، فالمجدد الإسلامى ، والمصلح الاسلامى إذن ليست رسالته أن يبتدع جديداً ، أو يبتكر تكملة ، أو يأتى بوحى من عنده .

و إنما تجديد الدين يراد به تجديد النفوس الإسلامية ، وتبديد الترهات والجهالات التى تكون قد تراكمت فى القلوب والعقول .

والله سبحانه الذى تعهد الخلق بالرسالات هدى ونوراً ، كلما ضللتهم قوى الشر ، وعبثت بهم أهواء النفوس ، هو الذى يمن على عباده بهؤلاء الملهمين المجددين الذين يسيرون على أضواء النبوات وأشعة الرسالات .

وقد كان عصر الغزالى من العصور التى تهيأت لعبقرى وثاب من عباقرة الروح والإيمان ليكافح تلك المادية الدنيوية الطاغية وتلك المذاهب الفكرية التى تسبح فى ضباب من الظنون والتخمينات تدفع إلى الفروض والإباحية كما تدفع إلى الضلال والجحيم .

وجاء الغزالى فكأن الإسلام يستقبل به عصرا جديدا ، واستمعت النفوس إلى ألحانه فكأنها تستمع إلى ألحان جديدة تهبط من هدى جديد .

جدد الغزالى للناس أيمان القلوب، ذلك الايمان الصافى المتجه إلى إلــه يدركه العلماء والحكماء والعامة .

وبعث الغزالى فى النفوس عقائد التوحيد الخالصة معطرة بعطر كأنه هبات الجنة ونفحات النعيم . وأضفى على التفكير الإسلامى نورا من المحبة والصفاء ، والاطمئنان والتوجه إلى الله توجهاً كاملا لا تشوبه رذيلة من رذائل الفكر ، ولا نقيصة من نقائص القلب ولا جريمة من جرائم البدن ، ولا سيئة من سيئات الأذى للناس .

كان تفكيره يلتمس هديه أبداً من السماء ، وكانت أعماله

مطبوعة أبداً بطابع الإيمان، وكانت دعوته صريحة واضحة لا جدل فيها ولا رياء، ولا تعقيد ولا التواء، وإنما إيمان بخالق واحد ما من نجوى بين المرء وقلبه إلى وهو شاهد عليها، ولا من همسة بين صديقين إلا وهو عليم بها وما من جارحة من جوارح البدن تعمل عملا فى ضحوة النهار أم فى ستار من الليل إلا وهو شاهدها ومحاسب عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وهذا الميزان الدقيق لأمور الحياة هو دستور الغزالى، وهو عماد دعوته إلى الخير والهدى والسلام.

وتراث الغزالى ليس نزوة من نزوات النفس، ولا خاطرة من خواطر العقل، فيذهب بذهاب جيل ويفنى بمرور عصر من العصور، بل هو خلاصة جهاد القلب والعقل، ووحى الروح والإلهام، وفيض ونور من النبع الخفى، نبع العباقرة الأفذاذ.

يقول الدكتور زويمر: «كل باحث فى تاريخ الإسلام، يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل العظام وهم محمد النبي، والبخارى، والأشعرى، والغزالى.»

وتلك كلمة حق فالغزالى بلا ريب أحد الذين شيدوا هيكل

الفكر الإسلامى ، وأقاموا دعائمه وأسسه على الهدى ودين الحق .

ولعل الغزالى أكبر أصحاب المذاهب الفكرية وأبعدهم أثراً فى التوجيهات الإسلامية ، ومرجع هذا تلك القوة الخفية الكامنة فى شخصيته المهمة ، والتى استحوذ بها على أذهان الجماهير فى عصره والقرون المتتابعة .

فالأشعرى مثلا استطاع أن يبتدع مذهب الأشعرية فأحدث بتعاليمه وثبة فكرية ولكنها وثبة بين طائفة معينة من رجال الفكر وعشاق علم الكلام ، ولكن أثره لم يتعد تلك الدائرة الخاصة ولم يتسلسل فى ضمير التاريخ نوراً وخلوداً .

أما الغزالى فكان أشبه بزعماء الجماهير وقادة الشعوب ، كان تأثيره السحرى عاماً شاملا مستحوذاً على عقول الطبقات كافة ، بل لعل تأثيره على الطبقات الوسطى وما دونها أشد أثراً وأبعد مدى .

ومن أسرار تلك الهيمنة أن سلطان الغزالى مبعثه القلب والعاطفة ، والمبادىء إذا مزجت بالقلوب والعواطف ثبتت وخلدت على الحوادث والعصور ، فقد مزج الغزالى العقائد

بالعبادات ومزج أصول الشريعة بالتصوف ، وأطلق فى الناس بخوراً مخدراً ساحراً، يدعو إلى إيمان بسيط سليم خال من التعقيد مجرد من التخمينات والافتراضات ، إيمان استسلام وعبادة وفناء فى الله ومحبة .

يقول العلامة ما كدونالد « إن الغزالى لم يكن كشافا ولا أول من ركب الطريق واهتدى إلى النجد ولكنه كان رجلا كبير الشخصية شديد التأثير النفسى ، نهج سبيلا مطروقة فجعلها مشرعا عاماً ومحجة واضحة، وهذا من فضل شخصيته وقوة خليقته»

ونستطيع أن نضيف الى قوة التأثير النفسى وقوة الشخصية القوة العلمية العظمى التى تفوق بها الغزالى ، تلك القوة التى جعلته نسج وحده بين عباقرة الفكر فى عصره .

أو كما يقول الأستاذ الأكبر المراغى فى الدلالة على تعدد جوانب العظمة فى تلك العبقرية .

« إذا ذكر ابن سينا أو الفارابى ، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان ، وإذا ذكر ابن العربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطورتها ، وإذا ذكر البخارى ومسلم واحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة

ومعرفة الرجال ، أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ، ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدرته وقيمته .

يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر ، والغزالى الفقيه الحر ، والغزالى المتكلم أمام أهل السنة وحامى حماها ، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب ، والغزالى الفيلسوف أو الذى ناهض الفلسفة ، وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالى المربى ، والغزالى الصوفى الزاهد ، وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره » .

تلك هى شخصية الغزالى ، شخصية كاملة القوى العلمية على تشعبها وتعددها ، كاملة الحرارة الروحية والإيمان القلبى ، وبفضل تلك الشخصية أضفى عليه العالم الإسلامى لقبه الخالد حجة الإسلام .

حجة الاسلام :

جاء الغزالى والفلسفة تناهض الدين وتواثبه ، والمذاهب العقيلة تتصارع وتبرع فى الجدل والاستخراج ، وتبتعد عن الروح

والقلب ، وجمهرة المسلمين فى حيرة ، ورجل الشارع متعب القلب ، متعب الروح ، لا يعرف كيف يهتدى ، ولا يعرف كيف يطمئن بين تلك التيارات .

فحطم الغزالى الفلسفة ، وصرع المذاهب ، ثم أتى إلى الجمهرة الإسلامية فخاطب منها القلب والروح وأدخل السلام والهدوء إلى القلوب والأرواح .

وأعاد للاسلام شبابه فى القلوب ، وحجته فى العقول ، ومكانته فى الأرواح والعبادات .

هدم الغزالى الفلسفة القديمة ليقيم الدين ويعلى بنيانه ، ثم عاد بالناس من الجرى وراء النظريات والجدليات واختلاف المذاهب إلى روح الإسلام وجوهره الصافى ، ومثله العليا الداعية إلى الإيمان والسلام .

علم الناس أن الحياة محبة ، محبة لله فى جلاله ، ومحبة للأنبياء جميعهم ، ومحبة للبشرية كافة ومحبة للخير على تعدد ألوانه ومساعدة عليه بالنفس والمال ، ودفع للأذى عن كل روح أياً كان لونها أو دينها .

طه عبد الباقى سرور نعيم

المفضليات

بشرح الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هرون

اختيار دقيق موفق، من نفيس الشعر فى العصور الأولى، فيه ١٣٠ قصيدة من الأدب العالى الفخم، تخيره إمامان كبيران من أئمة القرن الثانى: إبرهيم بن عبدالله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب، أحد أبطال آل البيت ونبلائهم، تخير منها ٧٠ قصيدة، ثم بنى عليها الكتاب، المفضل بن محمد الضبي.

وقد شرح الكتاب عالم من أكبر علماء العربية فى القرن الثالث، أبو محمد الأنبارى الكبير المتوفى سنة ٣٠٥، شرحا واسعاً ضخما، أثبت فيه أقوال الأقدمين فى تفسير الغريب بنصوصها الفصيحة القوية.

وهذا الشرح العظيم طبعته جامعة اكسفورد منذ عهد بعيد، ولكنه عزيز الوجود غالى الثمن.

فرأى الشارحان أن يقربا الإفادة منه للأدباء والمثقفين، علما ومالا، فاختارا، أجود ما فيه من النصوص وأعلاها، وأصحها شرحا وتفسيراً، فى قول موجز محكم، وزاداها صحة وإتقانا واستدراكا. وابتكرا فيه شيئا طريفا، يعين على فهم القصيد، بذكر «جو القصيدة» الذى يبين عن الأحداث التاريخية التى تتعلق بها، ومرامى الشاعر ومقاصده منها، ثم تخريج أبياتها من مصادر الأدب وعيونه. وقد انطوى هذا الشرح على أكثر من مائة وستين كلمة أو معنى لم تذكر فى المعاجم المعروفة، وهذه وحدها ثروة لغوية أدبية، يحرص عليها كل عالم وكل أديب.

وأتبعا الكتاب بفهارس دقيقة للشعراء، والقوافى، والزيادات على المعاجم. ثم بفهارس فنية تحليلية مبتكرة، هى فى صميم فنون الشعر.

والكتاب يقع فى جزءين فيهما أكثر من ٤٥٠ صفحة وثمنهما ٥٠ قرشاً

بمناسبة إعلان يوم النصر ... واستعداد الدول لوضع قواعد سلام دائم على الأرض ... ونهوض الأمم إلى البناء والتعمير ...

تقدم دار المعارف إلى العالم العربي

كتاب

التعاون الدولى والسلام العام

بقلم

حضرة صاحب العزة محمد رفعت بك

الثمن ٣٠ ص



دار المعارف

للطباعة والنشر

المحل الرئيسى بالقاهرة	:	٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية	:	٢ ميدان محمد على
مكتب فلسطين وشرق الأردن	:	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب السودان	:	شارع السردار بالخرطوم

ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد